مقياس مناهج البحث اللساني

المحاضرة الأولى: المنهج المقارن

أولا . تعريف المنهج لغة واصطلاحا:

وردت كلمة منهج أو (منهاج) في القرآن الكريم: "ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" المائدة: 48

أما المعاجم اللغوية ، فإن جلها تتفق في تحديد لفظة (منهج)، ونبدأ بأساس البلاغة للزمخشري (ت 539هـ) الذي جاء فيه: "(ن هـ ج) أخذ النهج، والمنهج والمنهاج وطريق نهج، وطرق نهجة، ونهجت الطريق، بينته، وانتهجته، واستبنته، ونهج الطريق وأنهج: وضح"

وفي لسان العرب: أنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجا واضحا بينا، والنهج بتسكين الهاء هو الطريق المستقيم. وقد عرف المعجم الوسيط المنهج بأنه الخطة المرسومة، واللفظة دلالتها محدثة، ومنه مناهج الدراسة ومناهج التعليم ونحوهما.

المنهج اصطلاحا: ويعني الطريقة أو الأسلوب وفي اللغة الأجنبية الفرنسية هو .(méthode) فالقصد من هذا المصطلح الطريق أو السبيل أو التقنية المستخدمة لعمل شيء محدد، أو هو العملية الإجرائية المتبعة للحصول على شيء "ما" أو موضوع "ما."

وقد وظف المنهج على أنه التيار أو المذهب أو المدرسة، وعلى الرغم من تعدد هذه المصطلحات فهدف المنهج وغايته واحدة، هو الكشف عن الطريقة أو الأسلوب لتيار معين أو مذهب معين أو مدرسة معينة.

وخلاصة القول: فإن المنهج هو الطريقة الخاصة التي تصلح لكل علم على حدة بل لكل موضوع من موضوعات هذا العلم، ويعني مجموعة القواعد العامة التي يتم وضعها بقصد الوصول إلى الحقيقة في العلم، إنه الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسة المشكلة لاكتشاف الحقيقة، أو الوصول لتحقيق الغاية المراد الوصول إليها.

ثانيا . المنهج المقارن:

المنهج المقارن أقدم مناهج البحث اللغوي الحديث وبه بدأ البحث اللغوي عصر ازدهاره في أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر. ويتناول المنهج المقارن مجموعة لغات تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة بالدراسة المقارنة.

1 . عوامل ظهور المنهج المقارن أو أسباب ظهوره:

لعل أسباب ظهوره المنهج المقارن قد تعود إلى نشاط البحث اللغوي الذي عرفته أوربا بالخصوص في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وما بعدهما ومن جملة ما تم تحقيقه – في ظل الأبحاث اللغوية في خلال الفترة المذكورة – اكتشاف اللغة السنسكريتية على يد السير وليم جونز (Sir William Jones)الذي كان قاضيا في المحكمة العليا بالبنغال في سنة (1786م) وهو الذي مهد الطريق لتأسيس المنهج المقارن عند قيامه بدراسة عن اللغات الهندو أوربية وقدم على إثر هذه الدراسة خلاصة نتائج ما توصل إليه في بحثه المقارن قال: "إن اللغة السنسكريتية مهما كان قدمها بنية رائعة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية، وهي تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين، لكنها مع ذلك تتصل بهما بصلة وثيقة من القرابة سواء من ناحية جذور الأفعال أم من ناحية الصيغ النحوية حتى لا يمكننا أن نعزو هذه القرابة إلى مجرد الصدفة. ولا يسع أي لغوي بعد تصفحه هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال من الوجود."

النص لا يحتاج إلى تعليق؛ لأنه صور أحسن تصوير ما يربط اللغات الهندو أوربية من روابط مشتركة ذات أصل واحد، وما تميزت به أو انفردت به اللغة الهندية من خصائص فردية عن أخواتها مثل اللاتينية، والإغريقية وغيرهما. من هنا اتفقت أراء الباحثين اللغويين على أن المنهج المقارن هو أقدم المناهج المعروفة لدينا اليوم، وعلى أساس هذا المنهج تم تقسيم وتحديد الفصائل اللغوية ضمن الدرس الفونولوجي.

2 . أهم مؤسسي علم اللغة المقارن:

سبقت الإشارة إلى أن وليام جونز (ت 1796م) كان ممن مهدوا الطريق وهيئوا الأرضية للعلماء الذين جاؤوا من بعده لمواصلة بحوثهم اللغوية في كل الاتجاهات، وتحت تيارات متعددة ومدارس نقدية مختلفة، من بينها المذهب المقارن. وكانت اللغة السنسكريتية أساس للمقارنة ضمن اللغات الهندية الأوروبية، ومعظم الأبحاث تتفق على أن بداية المنهج المقارن بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر. إلا أن عبده الراجحي يقول: "إن تأسيس الدرس المقارن قد بدأ على يد "يينش (D. Jenisch) "حين أعلنت الأكاديمية الألمانية عن جائزة لمن يكتب بحثا عن أحسن وسيلة في التعبير اللغوي؛ فكسب الجائزة هذا الأخير وأصدر في سنة (1796م) كتابه "مقارنة وتقدير فلسفيان نقديان لأربع عشرة لغة أوربية قديمة وحديثة "من هذا التاريخ تم تأسيس المذهب المقارن بأتم المعنى وكانت المدرسة الألمانية سباقة في احتوائها واحتضانها المنهج المقارن ولا ننسى لغوييها أمثال: فردريك فون شليجل (Friedrich Von Schlegel). الذي يعد أول من دعا إلى النحو المقارن وكتابه الذي أصدره في سنة (1808م) بعنوان: "عن اللغة و المعرفة عند الهنود."

لقد استمرت المدرسة الألمانية تطور أبحاثها اللغوية في ظل المنهج المقارن إلى جانب المنهج التاريخي على يد ثلة من علماء اللغويين أمثال:

فرانز بوب (1791م - 1867م (Franz Bopp) (صاحب كتاب (القواعد المقارنة)، وما توجيهه اهتمام الناس إلى هذه اللغة (السنسكريتية) والقواعد المقارنة في أبحاثه إلا دليل على مدى إرساء القواعد المقارنة وفق ما تقتضيه الدراسات الأكاديمية العلمية الحديثة. ويعده جورج مونان مؤسس القواعد المقارنة بلا منازع، وكان صاحب معرفة واسعة بعلوم عصره اللغوية والفلسفية وتعلم الفارسية والعربية والعبرية، والسنسكريتية على يد شيزي (Chézy) الأستاذ في معهد كوليج دي فرانس (Collège de France) منذ عام (1814م)، وهنا بباريس أنشأ بوب مذكرته: "في نظام تعريف اللغة السنسكريتية ومقارنته بالأنظمة الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية والفارسية والجرمانية.

استدعي بوب في سنة (1821م) لتعليم السنسكريتية في جامعة برلين، وتابع أبحاثه في اللغة المقارنة طوال نصف قرن من الزمن وتقدم إلى المجمع اللغوي في برلين بخمس مذكرات على التوالي نذكر منها، التحليل المقارن بين اللغة السنسكريتية واللغات التي تمت إليها بصلة القربى، (1824م – 1831م)، وكذلك القواعد المقارنة (1833م – 1852م.)" أما (جاكوب غريم Jacob Grimm 1785 – 1863م) صاحب كتاب (القواعد الألمانية) فهو يعد من مؤسسي المدرسة المقارنة أو النحو المقارن، فقد أسهم بعطاءاته في تأسيس المذهب المقارن بل والتاريخي، ولم يفرد جورج مونان ترجمة كاملة تخص حياة هذا اللغوي وجهوده وأبحاثه اللغوية مثل ما فعل مع بوپ، وراموس راسك الدانماركي، أو شلايشر، بل أشار إلى هذا الرجل في عدة محطات من كتابه تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين.

ما يثبت جهود جاكوب غريم في مجال البحث اللغوي المقارن جهوده للدراسات الصوتية المقارنة وما تخضع له من قوانين التحول التي تخضع لها الحروف الصحيحة في اللغة الجرمانية. وهو متأثر مقلد في نظر بردسن (Predersen) براموس راسك(R. Rask) ، والاقتباس ظاهر في كتاب غريم "القواعد الألمانية"، ففي طبعته الأولى لم يذكر غريم كلمة واحدة في علم الصوت، فحين أفرد هذه الظواهر الصوتية خمسة وتسعون وخمسمائة 595 صفحة من الطبعة الثانية (1822م) .

وقد أشار راومر (Rowmer) في موطن آخر من الكتاب المذكور، وذلك في عام (1870م) إلى ما يدين به الألماني غريم للغوي الدانماركي، هذا دليل ثان على أن جريم قد تأثر بأستاذه راموس راسك وبخاصة في مجال الدراسات الصوتية المقارنة. ناهيك أنه كانت له جهود كبيرة في تأسيس المنهج التاريخي، بدليل قول: جورج مونان: "لما كان بوب في سبيل إعداد القواعد المقارنة، كان غريم في الوقت نفسه يضع القواعد التاريخية للغة الألمانية، ثم راحوا يقتفون أثره فوضع ديز (Friedrich Diez)قواعد مقارنة وتاريخية معا للغات الرومية ومنذ عام (1870م) كانت الأبحاث قد طبعت بطابع جديد. ويصفه محمود السعران بخالق النحو المقارن في ألمانيا.

ولا ننسى أتباع مدرسة بوب وما قاموا به من أبحاث لغوية متأثرين بمنهج المدرسة المقارنة أمثال: ماكس مولر (M. Muller) وجورج كورتيوس(G. Curtius) ، وأوغست شليشر (1821 – 1868م (August Schleicher) ، حيث قدم كل منهم خدمات بطريقته الخاصة في فقه اللغة المقارن.

3 . هدف المقارنة عند بوب وأتباعه:

كان الهدف الأساسي من القواعد المقارنة عند بوب وأتباع مدرسته إثبات القرابة بين اللغات، وهي لا تسعى إلى تتبع تاريخها الطويل خطوة خطوة، بل تعتمد طريقة الموازنة الدقيقة الصارمة، وتنتهي من عملها أو تستنفذ خطوة، أو تستنفذ طاقتها إذ أثبتت أن التشابه بين أشكال لغتين لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة، وبالتالي لا بد أن تكون اللغتان قريبتين من الناحية التوليدية. إما أن تكون إحداهما منحدرة من الأخرى، وإما أن تنحدرا معا من أصل مشترك.

4 . ميدان المنهج المقارن:

إن علم اللغة المقارن أقدم مناهج البحث اللغوي كما يؤرخ له الباحثون، به بدأ البحث اللغوي عصر ازدهاره في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر للميلاد. إنه منهج يطبق على مجموعات لغوية معينة فهو يطبق على اللغتين أو عدة لغات منتسبة إلى أصل واحد بعيد، ثم خضعت في تاريخها الطويل لتطورات منفصلة. وعندما يقف اللغوي على جميع السمات (الخصائص) المشتركة بين أمثال هذه المجموعة من اللغات يتمكن من أن ينشئ النحو المقارن لهذه المجموعة.

المنهج المقارن يهيئ السبيل لتصنيف اللغات بحسب خصائصها وتجميعها في عائلات ومستوى هذه المقارنة هو الجانب الفونولوجي والنحوي والدلالي، بفضل هذا المنهج تقدم البحث اللغوي شيئا فشيئا، فقورنت اللغات الأوربية المختلفة واللغات الإيرانية، واللغات الهندية، وثبت بهذه المقارنات أن كثيرا من اللغات تحمل أوجه شبه في البنية والمعجم، وبذلك اتضحت معالم أسرة لغوية كبيرة تضم

لغات كثيرة في الهند وإيران وأوربا، وأطلق الباحثون على هذه الأسرة اللغوية اسم اللغات الهندية الأوربية. ويسميها الباحثون الألمان أسرة اللغات الهندية الجرمانية.

وقام الباحثون في اللغات السامية – أيضا – بتطبيق المنهج المقارن الذي يبحث مجموعة اللغات العربية والعبرية والآرامية والأكادية والعربية الجنوبية والحبشية.

وقد ازدهر البحث اللغوي المقارن خلال القرن التاسع عشر، وبحث في اللغة السامية من حيث الصوت وبناء الكلمة، وبناء الجملة الخبرية والفعلية والاسمية، وتناول علم الدلالة وما يتعلق بتاريخ الكلمات وتأصيلها.

كان للمنهج المقارن دور في دراسة اللغات السامية في فترة كانت الكشوف الأثرية قد ظهرت إلى الوجود مكتوبة على النقوش، وهي اللغات الأكادية في العراق، والعربية الجنوبية في اليمن، والفينيقية في منطقة ساحل الشام، وأضيف إلى اللغات السامية في القرن العشرين اللغة الإجريتية التي اكتشفت في ساحل الشام بالقرب من مدينة رأس شمرا سنة 1926 للميلاد.

إن البحث المقارن يتناول أسرة لغوية كاملة أو فرعا من أفرع هذه الأسرة اللغوية، ولهذا يعد علم اللغة المقارن فرعا مستقلا من أفرع البحث اللغوي.

يتناول المنهج المقارن المجالات المذكورة لعلم اللغة، فيبحث في الناحية الصوتية للأصوات الموجودة في هذه اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة، محاولا التوصل إلى قواعد مطردة تفسر التغيرات الصوتية التي طرأت على مدى الزمن، فانقسمت اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات كثيرة، انقسمت بدورها إلى اللغات أخرى، وقد اتضح في إطار البحث اللغوي الصوتي المقارن أن مجموعة من الأصوات مستمرة دون تغيير يذكر على العكس من هذا فهناك أصوات خضعت لتغيرات بعيدة المدى منها صوت الضاد الذي اختفى بمضي الوقت من كل اللغات السامية باستثناء اللغة العربية، وكل هذه البحوث في مجال الأصوات، وتعد بمنهج مقارن.

كما يتناول المنهج المقارن بناء الكلمة وكل ما يتعلق بالأوزان، والسوابق واللواحق، ووظائفها المختلفة، فدراسة الضمائر في اللغات السامية تعد من الدراسات التي أولى لها علم الصرف المقارن عنايته؛ لأنها تخص بنية الكلمة فهي تتم بمنهج مقارن، وكذلك أبنية الأفعال في اللغات السامية، واسم الفاعل في اللغات السامية، أو المصدر في اللغات السامية، فكل هذه الدراسات تدخل تحت ما يسمى بعلم الصرف المقارن للغات السامية.

كما يعد المنهج المقارن في بناء الجملة مجالا ثالثا من مجالات البحث في علم اللغة المقارن، إن دراسة الجملة سواء أكانت فعلية أم اسمية في اللغات السامية فهي مناط البحث بالنسبة للمنهج المقارن.

كما يبحث المنهج المقارن في اللغات السامية وبخاصة في الكلمات وتأصيلها، وغايته في هذه الدراسة التنقيب عن الكلمات المشتركة في المعنى أو المختلفة وما طرأ عليها من تغيير دلالي. كما يهدف إلى تأصيل المواد اللغوية في المعاجم، وردها إلى أصولها السامية إن وجدت.

5 . علاقة المنهج المقارن بالمنهجين التاريخي والوصفي:

إن العلاقة بين المنهجين التاريخي والمقارن واضحة من خلال اعتماد علماء اللغة التاريخيين على الأخير في دراسة اللغات وخصائصها من منظور تاريخي تركيبي يعمل على بناء المتشابهات للوصول إلى أقدم مرحلة تاريخية تمثلها اللغة الأم، كما أنه قد يُعتمد عليه في المقارنة بين مرحلتين تاريخيتين.

وأما العلاقة بين المنهجين الوصفي والمقارن فتتأتى من كون المنهج الوصفي هو أساس لمناهج البحث فلا تتم إلا به، فلا يمكن عقد مقارنة بين عناصر لغوية معينة– على سبيل المثال– إلا بوصف كل عنصر منها وصفا دقيقا قائما على التحليل والاستنتاج ثم وصف العنصر نفسه في الطرف الآخر، ثم عقد مقارنة بين هذين الوصفين للوصول إلى نقاط الاختلاف والاتفاق بينهما.

6 . المنهج المقارن في الدراسات التراثية:

إن وجود المناهج اللغوية من حيث التأسيس حديثة العهد لم يمر على قيامها أكثر من قرنين، واعتمادها طريقا أو منهاجا يلتزم به كل باحث مهما كان، ومهما تنوعت إنتاجات وإبداعات هؤلاء الباحثين على اختلاف تخصصاتهم.

على الرغم من حداثة خصائص المنهج المقارن وشروطه ومميزاته غير أن العرب لم يشروا إلى ذكر لفظة هذا المصطلح، ولا إلى أهميته في الدراسات اللغوية أيام ازدهار نهضتهم الفكرية، حالهم في ذلك حال الأمم المجاورة لهم مثل الفرس أو الهند أو اليونان، أو غيرهم، لكن آثار وجود بعض بصمات المنهج المقارن حاضرة في دراساتهم، وذلك من خلال ما استدل به الباحثون اللغويون العرب المعاصرون ولنأخذ نصا في الموضوع، قال سليمان ياقوت: "ولم يكن جميع القدامى من اللغويين العرب على جهل باللغات السامية، بل كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبعض هذه اللغات، وإن لم تثمر هذه المعرفة عندهم في الدرس اللغوي، ومقارنة العربية باللغات السامية، فقد ورد في كتاب (العين) للخليل بن أحمد قوله: "وكنعان بن سام بن نوح، ينسب إليه الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية."

النص يفصح بأن اللغويين العرب كانوا على دراية باللغات السامية أخوات العربية في وقت مبكر، والدليل على ذلك ما جاء على لسان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، حين ضارع لغة العرب بلغة الكنعانيين، فهذه الدراسة أساسها هو المنهج المقارن بمفهومه العلمي؛ لأن معرفة العلاقة بين اللغتين المذكورتين أو نفي الصلة بينهما لا يقوم بها إلا عالم أو عارف بلغتين متضلع فيهما.

وواصل سليمان ياقوت جملة من الاستشهادات التي ثبتت ملامح وجود المنهج المقارن في الدراسات التراثية العربية كالتي جاءت على يدي أبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي (ت 231هـ) عندما تعرض إلى أداة التعريف في اللغة السريانية، واللغة العربية، والرموز الإعرابية. فهناك بصمات للمنهج المقارن في الدراسات اللغوية العربية القديمة، وهذا ما نقف عليه عند صاحب الإيضاح في

علل النحو، قال: "الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى" فقال قائلون: إنما قصد الكلام العربي دون غيره، وقال آخرون بل أراد الكلم العربي كله والعجمي."

المتمعن في النص قد يعي كل الوعي أن العرب عندما تعرضوا لدراسة لغتهم في كل سياقاتها كانوا يدركون اللفظة العربية من غير العربية فهذه الأحكام والاستنتاجات هي من خصائص دراسات المنهج المقارن.

وما يثبت وجود أدلة على أن المنهج المقارن وجد في الدراسات العربية القديمة ما تناوله ابن دريد في جمهرته يشير إلى ما اختصت به الأصوات العربية دون سائر الخلق صوتا الحاء والظاء "وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعبرانية والحبشية كثيرة وأم الظاء وحدها مقصورة على العرب ومنها ستة أحرف للعرب ولقليل من المعجم وهن العين والصاد والضاد والقاف والطاء والثاء، وما سوى ذلك فللخلق كلهم من العرب والعجم إلا الهمزة."

كما توصل ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ) إلى وجود علاقة القرابة بين العربية والعبرية والسريانية وبخاصة فيما يتعلق باللفظ، ثم أدرك أبو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط (ت 754هـ) العلاقة الموجودة بين الحبشية والعربية، وألف فيهما تأليفا مستقلا في البحر المحيط.

قال: "وقد تكلمت عن كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى بـ(جلاء الغبش عن لسان الحبش ."هذا دليل آخر على أن علماء العرب القدامى قد تناولوا في دراستهم وأبحاثهم المنهج المقارن دون أن يعرّفوا أو يعرفوا أسس وخصائص هذا المنهج.

هذا ما يثبت أن العرب لم تكن دراساتهم دراسة عقيمة متحجرة غامضة بل مروا في أبحاثهم وتعليمهم ودراساتهم مثل بقية الأمم والشعوب التي سبقتهم.

7 . نماذج من الدراسات المقارنة في المكتبة العربية الحديثة:

حظيت المكتبة العربية الحديثة ببعض الدارسات الجادة التي تتناول ظاهرة لغوية من خلال بُعدها المقارن بين اللغات السامية، ومن هذه الكتب:

– الإبدال في ضوء اللغات السامية دراسة مقارنة، للدكتور ربحي كمال، وقد أورد المؤلف أن الهدف من هذا الكتاب " أن بعض ما جاء في تراثنا العربي القديم من شعر ونثر قد يستعصي علينا فهمه حق الفهم؛ لأن كتبنا اللغوية لم توفَّق في شرحه. فلا يبقى أمامنا سوى الاستعانة بأخوات اللغة العربية لاجتلاء معنى ما غمض من لغتنا، والنظر في وجوه الشبه والاختلاف بين دلالات بعض الألفاظ، وإذا كان لهذه الألفاظ ما يقابلها في اللغات السامية الأخرى سهل علينا أن نقارن بينها، فنردّ الألفاظ إلى أصولها، ونستطيع اجتلاء المعاني المختلفة للفظ الواحد، ومعرفة الأصلي والفرعي منها، وتقصي التطور من معنى إلى آخر "...

– في النحو المقارن بين العربية والعبرية للدكتور/ سيد سليمان عليان، يقول في مقدمته: " ويهتم هذا الكتاب بدراسة أبواب النحو في اللغتين العربية والعبرية، في محاولة لتقديم مقارنة بين اللغتين في النحو بشكل عام، في مجالات الأصوات والصرف والدلالة والجملة في ستة فصول".

المحاضرة الثانية في المنهج التاريخي

1 . تعريف المنهج التاريخي:

المنهج "التاريخي في الدرس اللغوي، عبارة عن تتبُّع أية ظاهرة لغوية في لغةٍ ما، حتى أقدم عصورها، التي نملك منها وثائقَ ونصوصًا لغوية؛ أي: إنه عبارة عن بحث التطور اللغويِّ في لغةٍ ما عبر القرون، فدراسة أصوات العربية الفصحى دراسة تاريخية، تبدأ من وصف القدماء لها من أمثال الخليل بن أحمد، وسيبويه، وتتبُّع تاريخها منذ ذلك الزمان، حتى العصر الحاضر، دراسة تدخل ضمن نطاق المنهج التاريخيِّ، ومثل ذلك يقال عن تتبُّع الأبنية الصرفية، ودلالة المفردات، ونظام الجملة. "وإذا أضفنا إلى ذلك أن اللغات تصيبها سُنَّةُ التطوُّر، فإن رصد مظاهر هذا التطور، والوقوفَ على أسبابه – من الأمور المهمة لفهم الحركة التاريخيَّة للُّغة، كما يوقفنا ذلك على الدلالات المتعددة التي لازمت اللفظَ عبر هذه العصور التاريخيَّة المتعددة.

2 . مجالات المنهج التاريخي في الدرس اللغوي:

يعنى هذا المنهج بدراسة تطور اللغة الواحدة عبر القرون ، فدراسة تاريخ اللغة من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية يدخل في مجال علم اللغة التاريخي ، ومعنى هذا أن دراسة تطور النظام الصوتي للعربية الفصحى هي دراسة صوتية تاريخية ، وتطور الأبنية الصرفية ووسائل تكوين المفردات في العربية على مدى القرون مما يدخل في الدراسة الصرفية التاريخية ،وتطور الجملة الشرطية أو جملة الاستفهام في العربية الفصحى مما يدخل في الدراسات الصوتية النحوية التاريخية ، والمعاجم التاريخية التي يسجل كل منها تاريخ حياة كل كلمة من كلمات اللغة من أقدم نص جاءت فيه متتبعا تطور دلالتها على مر التاريخ يعد أيضا من علم اللغة التاريخية .فالتاريخ الصوتي والصرفي والنحوي والمعجمي لأي لغة من اللغات يدخل في مجال البحث اللغوي التاريخي. ولا يتناول تاريخ اللغات تطورها البنيوي والمعجمي فحسب بل يبحث أيضا تطورها وحياتها في المجتمع، فقضية انتشار لغة من

اللغات والظروف التي مهدت له، وأثر ذلك في بنية اللغة تعد من الموضوعات التي يدرسها علم اللغة التاريخي.

ومن تاريخ العربية قضايا وظواهر غير ما تقدم تصلح للبحث اللغوي التاريخي فما أدخله اللغويون في باب الشاذ من الكلام، يعد من بقايا مرحلة تاريخية مبكرة في حياة العربية، فاقتران صيغة المضارع بالألف واللام: كقول الشاعر:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته

وصيغة (يفعول) مثل (يربوع ويعسوب ويحموم) فهذه وأمثالها مرحلة من مراحل التطور الصرفي لصيغة المضارع في العربية بقيت عالقة بالمرحلة الجديدة بعد أن استقر المضارع في العربية على صيغة (يفعل) من غير ألف ولام. ومنه أيضا الفعل (ودع) الذي أهمل اسم الفاعل منه (وادع) ومصدره (ودع)، وبقي المضارع والأمر منه فقط (يدع) و(دع). قال بعض النحاة : ((من الشاذ في القياس والاستعمال قولهم (اليجدع) ، وإدخال لام التعريف فيه على الفعل ((وكما رفضوا مثال الماضي من (يدع) فكذلك رفض المصدر واسم الفاعل فإن بعض البغداديين أنشد : حزني على ترك الذي أنا وادع .... وهذا في القلة كما تقدم)) ومن الدراسة التاريخية في اللغة ما يسمى بالأغلاط اللغوية فهذه الأغلاط تبين مدى تطور اللغة أو تغيرها بأي اتجاه، وهذا التطور يكشف عن مرحلة تاريخية من اللغة.

3 . نشأة المنهج التاريخي وتقاطعاته مع المنهج الوصفي:

كان اكتشاف اللغة السنسكريتيَّة في أواخر القرن التاسعَ عشرَ الميلاديِّ نقطةَ الانطلاق الحقيقي للمنهج التاريخيِّ، الذي يرى أن الفهم الحقيقيَّ للظواهر اللغوية يقوم على النظر في تاريخها وتطوُّرها، ومن ثم سهولة ربط الجانب الوصفيِّ بمسبباته التاريخيَّة، ومن ثم كان ينظر إلى اللغة المتكلَّمة – التي هي أساس الدراسة الوصفية – على أنها "شيء متغيَّر خدَّاع، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة"التي تمثِّل الأساس للمنهج التاريخي.

والانطلاق الحقيقي الذي وصفنا به هذا المنهج – له ما يسوِّغُه، يقول روبنز: "من المألوف في علم اللغة أن يقال: إن القرن التاسع عشر كان عصر الدراسة التاريخية والمقارنة للغات، وبوجه أخص اللغات الهندوأوروبية، وهذا أمر مسوَّغ بشكل كبير، ولكن هذا لا يعني أنه لم تُجْرَ قبلَ هذا الوقت بحوثٌ تاريخية تقوم على مقارنة اللغات، ولا أن كلَّ الجوانب الأخرى لعلم اللغة قد تم تجاهلها خلال القرن التاسع عشر، ولكنَّ المسألة هي أن هذا القرن قد شهد تطوُّرًا في المفاهيم النظرية والمنهجية الحديثة لعلم اللغة التاريخيِّ والمقارن، كما أن التركيز الأكبر للجهود العلمية والمقدرة العلمية في علم اللغة كان مكرسًا لهذا الجانب من الموضوع أكثرَ من غيره من الجوانب."

وإذا كان المنهج الوصفيُّ يوصف بالثبات؛ كونه يقتصر على دراسة ظاهرة محددة في مكانٍ وزمانٍ معيَّنين، فإن المنهج التاريخيَّ على العكس، من حيث دراسةُ حركة هذه الظاهرة بين عصرين أو أكثر؛ لرصد مظاهر التطوُّر ومسبَّباته.

ولا بد أن نشير إلى حاجة هذا المنهج إلى المنهج الوصفيِّ وقيامه عليه لاعتماد المناهج المتعددة عليه، وقيامها من خلاله – إذ إن دراسة اللغة عبر هذه المراحل التاريخيَّة المتعددة تتطلب الوقوف بالوصف والتحليل للغة أو الظاهرة المدروسة فيها أولًا، ثم المرحلة التالية، ثم ما يليها، وهنا يأتي ربط هذه العمليات الوصفيَّة ببعضها بعضًا من خلال المنهج التاريخي.

وهذه مقارنةً بين هذين المنهجين:

معيار التفريق	المنهج الوصفي	المنهج التاريخي
الوظيفة	لا يتجاوز أطر الوصف وحدود التشخيص دون زيادة أو نقصان أو نقد.	يعتمد على ملاحظة التطوُّر، ومتابعة التغيير، واستنتاج الأسباب التي أدت إلى ذلك.
كيفية المعالجة	هو وسيلة لدراسة الظاهرة بطريقة أُفقيَّة، في مكان وزمان	هو وسيلة لدراسة الظاهرة رأسيًّا؛ أي: عبر مراحل تاريخية

	محددين.	متعددة.
ميدان الدراسة	يمتد في معالجته البحثية إلى ميدان المنطوق والمكتوب، ومن ثم يصلح للدراستين الوثائقية والميدانية في آن واحد.	يعتمد على المكتوب في محاولة استنطاقه، واستنباط ملامح التطور من خلاله.
الطبيعة	يتسم بالسكون.	يتسم بالحركة.
مدى الإفادة في التصنيف اللغوي قديمًا	أكثر حظًّا من حيث اعتماد اللغويين القدماء عليه، واعتمد عليه في مجالات كالنحو والصرف والأصوات.	كان أكثر اتصالًا بالدلالة من حيث المعالجات المعجمية وقضايا الدلالة المتعددة.

والمنهج التاريخي يفيد في دراسة ألفاظ لغة قديمة متجذِّرة في عمق التاريخ كاللغة العربية؛ ليقف على الدلالات المتعددة التي لازمت ألفاظها، فصاحَبَتْها أو فارقتها، أو أضيفت بجانبها معانٍ ودلالات أخرى، أو أزاحتها دلالات أخرى وحلَّت محلَّها.

ومن ثم، فإننا مثلًا في هذه الحالة "ليست هناك فائدة في الاعتماد على المعجم وحدَه في معرفة معنى الكلمة واستعماله؛ لأنه – بكل بساطة – لا يضيف جديدًا سوى الحصر، إن كانت في الحصر جدة، ومن هنا فإنه من الأهمية حين صناعة المعجمات – خاصة التاريخية منها – الاتصال بالنصوص في أقدم مظانِّها.

ومن أمثلة التطور في دلالة الألفاظ كلمةُ (السيَّارة) التي تعني عند القدماء (القافلة) أو (الجماعة)، وقد ورد ذلك في الذِّكر الحكيم؛ قال تعالى :﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ [يوسف: 19]

وهناك معنى محدَث، إذ يعرِّف (المعجم الوسيط) السيارة بأنها "عربة آلية سريعة السير، تسير بالبنزين ونحوه، وتُستخدم في الركوب أو النقل، ويحكم المعجم على تلك الدلالة بأنها محدثة."

المحاضرة الثالثة: المنهج الوصفي

1 . مفهومه وأهدافه:

يعدُّ المنهج الوصفيُّ من أهمِّ المناهج المعتمَد عليها في المجالات الإنسانيَّة – ومنها المجال اللغوي – بل إن المناهج الأخرى تعتمد عليه في مقارباتها للظاهرة اللغوية، ويقوم المنهج الوصفيُّ في الدرس اللغويِّ على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة؛ أي: في نواحي أصواتها، ومقاطعها، وأبنيتها، ودلالاتها، وتراكيبها، وألفاظها، أو في بعض هذه النواحي، ولا يتخطَّى مرحلة الوصف؛ بمعنى أنَّ مستخدم هذا المنهج لا يتدخَّل في وصف الظاهرة المدروسة بالتعليل والتفسير، والتخطئة والتصويب؛ لأنَّ ذلك يدخل في اختصاص منهجٍ آخَر، هو المنهج المعياريُّ، كما أنه لا يُعنى بتطوُّر الظاهرة ومراحلها المتعدِّدة مما يدخل في حيز منهج آخَر، هو التاريخي، ولا تتمُّ فيه مقارنة أو مقابلة الظاهرة اللغويَّة بين لغتين أو لهجتين أو لهجة ولغة مما يُعنى به المنهجان المقارن والتقابليُّ، على أنَّ الفصل التامَّ بين هذه المناهج نظريٌّ بحت.

والوصف هنا لا يقوم على الانطباعات الشخصيَّة، التي تختلف اختلافًا كبيرًا بين شخص وآخَر؛ وإنَّما هو وصف علميٌّ يستند إلى التحليل، ولا يكون وصفًا علميًّا إلا أن يسبقه التحليل (حصر جميع جزئيات الموصوف، وتصنيفها، وترتيب هذه التصنيفات حسب نظامٍ تحدِّده مشكلة البحث)، أمَّا الوصف غير العلميِّ، فلا يشترط فيه التحليل، بل – في بعض الحالات – قد يتطلَّب منهجه التركيز على بعض جزئيَّات الموصوف والمبالغة عند وصفه للأغراض الفنيَّة، كما أنَّ الوصف العلميَّ يتطلَّب الارتباط بالواقع قَدْر الإمكان، أمَّا الوصف غير العلميِّ، فيتسم بالجنوح في الخيال بقصدٍ أو بغير قصد.

ويمكن – توضيحًا لهذا الكلام – أن نعطي ثلاثةً من الباحثين عنوانَ موضوع واحدٍ، يدرسون فيه ظاهرةً لغويةً معينةً، كلٌّ على حدة، فمِن المفترض أن يتفق الثلاثة في نتائجَ عديدةٍ، نعم، قد يزيد بعضهم أمورًا أو ينقص بعضهم عن البعض، لكنَّ ذلك يرجع إلى مؤهلات كلِّ باحث وقدراته،

والمنهجيَّة التي سيتبعها، ليس لاتباع المنهج نفسِه؛ فالمادة التي سيجمعونها ستتفق غالبًا، والتصنيف قد يتفقون في كثيرٍ منه، ومن المفترض أن يتفقوا على كثيرٍ من النتائج.

2 . نشأة المنهج الوصفي:

يؤرِّخ الكثير من العلماء للمنهج الوصفيِّ في الدرس اللغويِّ بما قدَّمه دي سوسير (ت 1913م) من آراء بُنِي عليها ما يعرفُ بالمنهج الوصفيِّ، أو علم اللغة الوصفيِّ.

ويعود سبب تأريخ العلماء لهذا المنهج بجهود دي سوسير أنَّه بعد اكتشاف اللغة السنسكريتيَّة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي – تحديدًا حينما أعلن السير وليم جونز آراءه حولها عام 1786م – اتجه البحث في أوروبا طيلةَ القرن التاسع عشر إلى الدراسة المقارنة وكذلك التاريخيَّة، التي ترى أن فَهم اللغة – اللاتينية في هذا الصدد على وجه الخصوص – لا يتمُّ إلا مِن خلال مقارنتها بغيرها، أو من خلال النظر في تاريخها الممتد، إلى أنْ جاءت نظريةُ دي سوسير التي جَعَلَت من دراسة اللغة نفسِها طريقًا لمعرفة ظواهرِها وأسرارها، وذلك الاتجاه لخَّصَه تعريفُه لعلم اللغة بأنَّه دراسةُ اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وخصوصًا تعبيره (في ذاتها)، وهو يوضِّح أنَّ الطريقةَ المثلى لدراسةِ اللغة على مستوياتِها المتعدِّدة لا تتمُّ إلا من خلال هذه المستويات والنظم اللغويَّة، لا من غيرها.

ولكثير من علماء العربية المحدَثين على هذا التأريخ تحفُّظٌ؛ لسبق علماء العربية – بوجه خاصٍّ – إلى كثيرٍ مِن أسس هذا المنهج، ومن ذلك – على سبيل المثال – ما يروى من أنَّ الكسائيَّ، وقد سئل في مجلس يونس عن قولهم: (لأضربن أيُّهم يقوم): لم لا يقال: لأضربن أيَّهم، فقال: (أيٌّ) هكذا خُلِقَتْ، فقد قدَّم لنا الكسائيُّ وصفًا لوضعِ هذه الكلمة اعتمد فيه على ما نَطَقَت به العرب، دون البحث عن تعليلٍ أو تفسير.

ومن هذا القبيل أيضًا ما قام به ابنُ فارس في كتابه "الصاحبي" من وصفه أحكامَ العربية وفقًا للاستعمال ليس غير، بتعبيره المعروف: ومِن سنن العرب كذا وكذا.

وهذا ما دعا بعضَ الباحثين الغيورين على العربية إلى البحث عن جذورٍ لهذا المنهج في التراث العربيِّ، ومنهم:

يقول د. عبده الراجحي:.. إلا أنَّ ذلك كلَّه يلفِتنا إلى أن كتب النحو العربيِّ حافلة بمادةٍ صالحة جدًّا عن العربية، وهذه المادة – وإن تكن في مستوى لغويٍّ وزمانيٍّ ومكانيٍّ معيَّن – تَقِفُنا على طريقة القدماء في تناول الظاهرة اللغويَّة، وهي طريقة لا تبتعد – في جوهرها – عن كثيرٍ مما يقرِّره الوصفيُّون.

د. نُوزَاد حسن أحمد، في كتابه الماتع (المنهج الوصفي في كتاب سيبويه)، وهو يتحدَّث عن (الكتاب) فيقول: .. ثم إنه النبع الصافي لمنهج البحث الوصفيِّ عند العرب؛ إذ وقف صاحبه عند الظواهر اللغويَّة طويلًا يصف حقائقها، ويتأمَّل أسرارها، ويحلِّل بنيتَها؛ ليصل إلى أحكامٍ تمثِّل غايةَ النضج.

3 . سمات المنهج تلوصفي:

من أبرز سمات المنهج الوصفي ما يأتي :

1- الاهتمام باللغة المنطوقة ، وجعلها هدف البحث اللغوي ، وذلك لأن التغيرات تظهر على اللغة المنطوقة بشكل أدق من اللغة المكتوبة ، فيبين النطق أثر التعاملات الصوتية في المستوى الصوتي ، ووظيفة النبر في المستوى الصرفي ، ومهمة التنغيم في المستوى النحوي في حين لا يظهر هذا في الكتابة .

2- الاقتصار على الجانب الشكلي في وصف الظاهرة اللغوية ، والابتعاد عن التصور المعنوي المتخيل في عقل الإنسان أثناء الكلام .فالمنهج الوصفي يوصف بأنه (شكلي) أو(صوري) بمعنى أنه ينظر إلى الصور اللفظية المختلفة التي تعرضها اللغة ثم يضعها على أسس معينة ، ثم يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في الجملة وصفاً موضوعياً ولا يضع لهذه اللغة تصورا غير ما يدل عليه الشكل الظاهر لهذه اللغة المدروسة .

3- التفريق بين (منطق اللغة) و(المنطق الأرسطي) ، فالأول مقبول ومعترف به في دراسة اللغة ، والأخير مرفوض دخيل على تلك الدراسة ، والمقصود بمنطق اللغة : التفكير المنظم في تناول مظاهرها

وعناصرها وتقسيم فصائلها وأنواعها ، أما الآخر أي المنطق الأرسطي فهو منطق الفلاسفة وطرقهم في دراسة العلوم والمعارف وهذا لا يصلح لدراسة اللغة لأنه دخيل عنها ويؤدي إلى الجدل والاضطراب. فالمنهج الوصفي ((منهج لغوي خالص يصف اللغة المدروسة كما هي . فيبين ما لعناصرها من خصائص ومميزات ، وما بينها من علاقات ، دون إقحام العوامل الذاتية من فروض وظنون وآراء شخصية)).

4- الاهتمام باللغات الحية والعزوف عن دراسة اللغات القديمة ، لأن المنهج الوصفي يهتم بواقع الظاهرة اللغوية لا بتاريخها.

5- الاعتماد عليه في مجال التعليم ، فقد عمدت الدراسات التعليمية إلى اتباع المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليمية ، وهو منهج يستهدف وصف الظاهرة اللغوية دون مقارنتها ، أو الوقوف على مراحل تطورها التي سبقت بل يصفها كما هي ، من حيث اطراد القواعد وشيوعها . والذي ينعم النظر في تاريخ دراسة اللغة العربية على ضوء الدراسة الوصفية التي تقدم الحديث عن أسسها وميزاتها يرى محاولة جدية لإنشاء منهج وصفي لدراسة اللغة .

4 . أسس المنهج الوصفي:

يقوم المنهج الوصفيُّ في الدرس اللغوي على عدة أسس، أهمّها:

1 . جمع المادة اللغوية:

إن أيَّ وصف لظاهرةٍ لا يتمُّ إلا بعد جمعٍ لموادِّ هذه الظاهرة، من خلال مصادر محدَّدة، تفرضها طبيعة الموضوع، والمجال، وهدف الباحث... إلخ" .وقد عزف بعض علماء المنهج الوصفيِّ عن دراسة اللغات القديمة كالسنسكريتية واليونانية القديمة واللاتينية وسواها، ويعود السبب في ذلك إلى أن (اللغة) يجب دراستها خلال الواقع المنطوق؛ لأن المنهج الوصفيَّ يهتم بواقع الظاهرة اللغوية في ضوء ما يسمَّى باللغة المنطوقة Spoken languag ؛ لأن قواعد الإملاء والكتابة، مهما كانت دقيقة،

لا تُفيد في وصف أية ظاهرة لغوية، ويضاف إلى ذلك أن النص المنطوق يتيح الفرصة لدراسة أصواته، وقوانين النبر الخاصة به، والتنغيم حين النطق لبعض العبارات والجمل."

ويمكن الردُّ على هذا الكلام – من واقع دراسة اللغة العربية – على النحو التالي:

• إمكانية معالجة اللغة المكتوبة في ضوء المنهج الوصفي؛ فالدراسة اللغوية للعربية منذ العصر الجاهليِّ حتى الآن تعتمد على النصوص الشعرية والنثرية المكتوبة التي وصلت إلينا، واستطاع الباحثون من خلالها الوصولَ إلى كثير من الخصائص اللغوية على اختلاف مستوياتها.

• أن العربية بوصفها لغةً حيَّةً قديمة ونامية متجددة، تتناقض مع رؤية الغربيين للغة المكتوبة من كونها لغةً بَطَلَ استعمالُها، ومن ثم فإن هذا المنهج يصلح لدراسة العربية في صورتَيْها المكتوبةِ والمنطوقة.

إن جمع المادة اللغوية، سواء أكانت في صورتها المنطوقة أم المكتوبة، يتم بناءً على الفكرة التي وضعها الباحث، والأُطر التي أحاط بها هذه الفكرة، ومن ثم فقد يعتمد على ما يسمَّى الراويَ اللغويَّ الناطق أو المكتوب. فإذا درس الباحث لهجةً معاصرة – على سبيل المثال – فلا بد أن يعتمد على الراوي اللغويِّ الناطق، فيستمع إلى أهلها ضمن شروط معينة وضعها العلماء لهذا الراوي، منها:

• أن يكون من المواطنين الأصليِّين لتلك البيئة التي تؤخذ منها هذه اللهجة.

• أن يكون أقل ثقافة؛ لأن المتعلمين دائمًا ما تتأثر لغاتهم بما يتعلمونه، وقد يستخدمون أيضًا أسلوب المبالغة في التفصُّح، يقول د. تمام حسان: "ويحسن أن يكون أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب؛ حتى لا تؤثِّر العوامل الثقافية في تمثيله الصحيح لهذه اللهجة."

• أن تتوافر لديه شروط السلامة العقلية، والأدائية أو النطقية التي تؤهله لنطق الأصوات نطقًا صحيحًا.

ثم يحلِّل الباحث هذا المادة الصوتية بعد تسجيلها، ويستخرج منها النتائج.

وفي الحقيقة فإن "مصدر العناية باللغة المسموعة في المنهج الوصفيِّ متأتٍّ من أمرين:

أحدهما :جعل البحث اللغوي واقعيًّا من خلال ربطه باللغة المستعملة فعلًا.

والآخر :الوقوف على العادات النطقية لمتكلمي اللغة"، لكنَّ رعاية اللغات ذات التاريخ الممتد كاللغة العربية، كان لا بد أن يوضع في حسبان الوصفيِّين.

فإذا كان هذه اللهجة قديمة، اعتمد على ما ورد من أخبار وروايات ذكرها العلماء تصف الخصائص اللغوية المتعددة لهذه اللهجة، وبالتالي فإن الاعتماد على المراجع الأصيلة والمصادر الثانوية هو السبيل إلى هذه الدراسة.

2 . تحديد زمن الدراسة:

إن وصف (المنهج الوصفي) بالسكون يقتضي زمنًا معينًا – طال أو قصر – تُدرس من خلاله الظاهرة؛ لأنه بتعدُّد الأزمنة ينتقل التناول إلى المنهج التاريخيِّ الذي لا يقف عند مرحلة زمنية معينة؛ لأن الظواهر اللغوية قد تتبدل وتتغيَّر خصائصها من مرحلة زمنية إلى أخرى، مما يقتضي من الباحث الوقوف بطريقة رأسية على الظاهرة المدروسة تمكِّنه من الوصول إلى نتائج دقيقة.

3 . تحديد البيئة المكانية:

كما أن لتحديد البيئة المكانية للظاهرة المدروسة أهميةً كبيرة أيضًا، تعمل مع تحديد زمن الدراسة على تأطير الدراسة بسياج من الدقة، التي لا بد أن تنطبع على النتائج المتوصَّلِ إليها. وتؤثر البيئة تأثيرًا واضحًا في لغة أصحابها، فتصبح اللغة "بدوية في المجتمع البدويِّ غير المتحضر، ولذلك نجدها فيه محدودةَ الألفاظ والتراكيب والخيال، وليست مرنة ولا تتسع لكثير من فنون القول، أما إذا كانت اللغة في مجتمع قد أخذ قسطًا من الحضارة، فإننا نجدها متحضرةَ الألفاظ، مطردة القواعد، يسيرة في نطقها، خفيفة الوقع على السمع."ويمكن القول: إن دراسة الظاهرة في كتاب معين تقوم مقام الذكر الصريح للبيئة والزمان.

4 . وحدة المستوى اللغوي:

يتطلب المنهج الوصفيُّ ضمن تحديداته تحديدًا للمستوى اللغوي للظاهرة المدروسة، ويرى بعض العلماء أنه "ليس من الدقة في شيء أن تكون النتائج واحدة لمقدمات تتنوع بتنوع المستوى اللغوي

المعروض للفحص والدراسة، فهناك المستوى الأدبيُّ الفصيح، والمستوى اللهجي التراثي، والعامي الحديث، بالإضافة إلى المستويات المختلفة باختلاف الحرف والمهن، كطبقة الزراعيين، والصناعيين، والتجاريين... وما إلى ذلك من لهجات اجتماعية عديدة." ويدخل ضمن هذا التحديد للمستوى الواحد كالأدبي الفصيح: هل ستكون الدراسة في الشعر أم النثر؟ ... إلخ.

5 . المنهج الوصفي والتراث العربي:

يمكن قبول أن المنهج الوصفي بكونه منهجًا بحثيًّا له أسسه المتكاملة وعناصره المترابطة – غربيٌّ دوسوسيريٌّ بشكلٍ كبيرٍ، لكنَّ ذلك لا يمنع أن هناك إشارات وممارسات في التراث العربيِّ تدلنا على سبق العرب إلى مثل هذه الأسس تنظيرًا أو تطبيقًا، ومن ذلك يمكن التمثيل بما يلي:

- **بالنسبة لجمع المادة العلمية:**

فتمثِّل مرحلةُ جمع العربية النقية من أفواه العرب الخُلَّص تطبيقًا عمليًّا لهذا الأساس، ومن الأخبار الكثيرة المروية في ذلك أن الكسائي خرج إلى البوادي فأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه .

- **وبالنسبة لتحديد زمن الدراسة:**

فقد كان علماء العربية القدامى واعين لهذا التحديد، من خلال ما يعرف بعصور الاحتجاج، فحدَّدوا للأخذ من فصحاء العرب منتصف القرن الثاني الهجري في الحواضر، ونهاية القرن الرابع الهجري في البوادي؛ ليكون هذا الإطار الزماني حافظًا لصحة نقلهم عن العرب الفصحاء.

- **وبالنسبة لتحديد البيئة المكانية:**

فكما حددوا المدى الزمني للأخذ عن العرب الفصحاء، حدَّدوا بعض القبائل التي سيأخذون منها اللغةَ، فلقد وصفوا الحواضرَ وأطراف الجزيرة بأنها لا تمثل لغتُها لغةَ العرب تمثيلًا صحيحًا؛ لتعرُّضها لمؤثرات أجنبية؛ ولذلك أخذوا من قبائلَ محددة، هي: قيس، وتميم، وأسد، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ لا من قبيلة لخم ولا من جذام؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط،

ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النمر؛ لأنهم كانوا مجاورين لليونانية، ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس... إلخ.

وقد وضح السيوطيُّ أيضًا الخطة المكانية الأساسية التي وضعوها لهذا الجمع بقوله: "وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضريٍّ قطُّ، ولا عن سكان البراري، ممن كانوا يسكنون أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم."

- **وبالنسبة لوحدة المستوى اللغوي:**

وقد أدرَكَ علماء العربية الأوائل أهميةَ هذا التحديد؛ ولذلك قصَروا عملية الجمع اللغويِّ على مستوى لغويٍّ معيَّن، هو اللغة الفصحى، والتي كان من أهم مصادرها القرآن الكريم وقراءاته المختلفة، والحديث النبويُّ الشريف، وكلامُ الفصحاء من قبائلَ معينةٍ حصروها في المناطق البادية من شبه الجزيرة العربية.

من ملامح المنهج الوصفي في كتاب سيبويه: والمقصود بذلك: الطريقة التي عالج بها سيبويه الظواهر اللغوية، ومجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي استند إليها لحل جوانب هذه الظاهرة، وسأكتفي من ذلك بثلاثة جوانب، هي:

أولًا – السماع:

يقوم المنهج الوصفي بشكلٍ كبير على السماع؛ لأن الخطوات التالية للبحث إنما تكون بعد جمع المادة التي تجري ملاحظتها ودرسها. واهتم سيبويه بالمسموع من اللغة جريًا على طريقة أساتذته، وتنوَّعت مصادر السماع عنده، بين الأخذ المباشر من أفواه العرب، أو السماع عن طريق شيوخه؛ كعيسى بن عمر (149هـ)، والخليل بن أحمد (170هـ)، ويونس بن حبيب (182هـ)، وغيرهم ممن يَعِجُّ الكتابُ بذكر الأخذ عنهم. وقد يستعين ببعضٍ من العرب، الذين ينتمون إلى قبيلة معينة تشعَّبت أماكن سكنها، ويقوم ذلك كدليل على حرصه على جمع أكبر عدد ممكن من البيانات اللغوية من اللهجات

المنتشرة في الجزيرة العربية، ويستعين في ذلك ببعض العبارات؛ نحو: "وسمعنا العرب الفصحاء يقولون"، "وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقول"... ، "وسمعت من أثق به من العرب يقول."...

ومما يضفي على منهجه صفةَ الوصفية: أخذُه عن عربيٍّ واحد، أو عن عربيين اثنين، وهو الذي يُعرف في المنهج الوصفيِّ الحديث بالراوي أو مساعد البحث؛ كونه الممثل الحقيقيَّ للغة، والمعبِّر الصادق عنها، ومن ذلك قوله: "وأنشدناه هكذا أعرابيٌّ من أفصح الناس"، "سمعت عربيًّا مرة يقول."

ثانيًا – اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة:

قلنا من قبل: إن الوصفيين يعطون اللغة المنطوقة جلَّ اهتمامهم، وقد أدرك سيبويه أهمية اللغة المنطوقة في منهجه الوصفي، وكان يعتمد عليها في استقراء الأصول اللغوية، ويظهر ذلك بوضوح في وصفه الأصوات اللغوية، حيث ذكر أن "أصل الحروف العربية تسعة وعشرون حرفًا."

ومن مظاهر اعتنائه باللغة المنطوقة ذكره أن اختلاس الحركة في نحو (يضربها)، و(من مأمنك) "تحكمه لك المشافهة"، وما الاهتمام بالتماثل الصوتي، والتخالف الصوتي، والإدغام... وغيرها من التغييرات الصوتية التي يتحكم فيها النطق – إلا أثر من آثار اهتمامه باللغة المنطوقة.

ثالثًا – التصنيف:

من العمليات المهمة في المنهج الوصفيِّ مرحلة التصنيف، التي تستقصي ظواهر اللغة بوسائل متنوِّعة، وذلك عن طريق تقسيمها على مستويات لغوية تسهِّل على اللغويِّ وصفَها وتحليلها، والخروج بنتائج دقيقة لها.

ولم يكن سيبويه بعيدًا عن هذا الجانب، فقد هداه عمله التصنيفيُّ إلى معرفة أقسام الكلم، قال: "فالكلم: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"، وصنَّف أصواتَ اللغة، ومخارجَها، وبيَّن صفاتها.

6 . من تطبيقات المنهج الوصفي:

من مجالات تطبيق المنهج الوصفي الأطالس اللغويَّة، وهي التي تُعنى برسم الخرائط الجغرافيَّة التي تُظهر توزيع لغةٍ واحدة، أو عدَّة لغات، أو كل لغات الكون، فتبيِّن مدى انتشارها، وترسم حدود مجالها بألوانٍ مختلفة، أو بعلامات مميزة، تكون هذه الخطوط حدًّا يميِّز المجموعةَ اللغويَّة عن غيرها. تُعدُّ هذه الأطالس مثالًا من أمثلة تطبيق هذا المنهج الوصفيِّ على اللغات واللهجات؛ فهي لا تعرض علينا سوى الواقع اللغويِّ مصنفًا، دون تدخُّلٍ من الباحث بتفسير ظاهرةٍ أو تعليل لاتجاه لغويٍّ، هنا أو هناك. ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ الأطالس اللغويَّة العربيَّة ظَهَرَت على أيدي المستشرقين، وإلى الآن ليس لدينا أطلسًا عربيًّا كاملًا بأيدي أبناء العربيَّة؛ لقلة الإمكانيات حينًا، وتهاون الباحثين في هذا الجانب حينًا آخَر.

وقد ذكر د. محمود فهمي حجازي بعضًا من عناوين البحوث التي تدخُل ضمن علمِ اللغة الوصفيِّ، وهي أمثلة لتطبيق هذا المنهج في الدرس اللغويِّ، قائلًا: إنَّ كلَّ البحوث التي تتناول مستوى واحدًا من مستويات اللغة بالدراسة الشاملة أو الجزئيَّة لأحدِ جوانبه – تُعدُّ من موضوعات علم اللغة الوصفيِّ؛ فدراسة البِنيَة الصوتيَّة للعربيَّة المعاصرة، ودراسة المقاطع في لهجة ما – تعدُّ من الدراسات الصوتيَّة الوصفيَّة، أما علم الصرف الوصفيِّ، فيبحث موضوعات مثل: أبنية الأفعال في لهجة ما، أبنية الأسماء في العربيَّة الفصحى المعاصرة، المشتقَّات في القرآن الكريم، المصدر في الشعر الجاهلي، وهذه أمثلة لدراسات تتناول بناء الكلمة في مستوى لغويٍّ بعينه من مستويات اللغة، وتدخل قضايا تحليل بناء الجملة أيضًا في علم اللغة الوصفيِّ، ومن أمثلة بناء الجملة بالمنهج الوصفيِّ: الجملة العربية في الشعر الجاهليِّ، الجملة الخبريَّة في القرآن الكريم، الجملة الطلبيَّة في الأصمعيَّات.. وفي الجانب المعجميِّ أيضًا مجالات كثيرة لتطبيق المنهج الوصفيِّ، وهناك معاجم أُعِدَّت لمستوى لغويٍّ بعينه؛ مثل: معجم ألفاظ القرآن الكريم.

المحاضرة الرابعة: المنهج البنيوي

1 . مقدمة: نشأة البنيوية وتطورها

كان علم اللغة هو الميدان الذي نما فيه المنهج البنيوي وترعرع، وأضحى يُطلَق على عالم اللغة السويسرى فرديناند دو سوسور (1857 – 1913) Ferdinand de Saussure الذي أسس علم اللغة الحديث ''أبو البنيوية'' نتيجة لإسهاماته العميقة في هذا المضمار . وتنبغي الإشارة إلى أن دو سوسور لم يستعمل مصطلح الجملة ولكن الأفكار التي سطرها في محاضراته كانت هي المهاد للمنهج البنيوي، وأما محاضرات دو سوسور فلم يتم نشرها وشيوعها إلا بعد وفاته بثلاث سنوات على يد تلامذته، وذلك في كتابٍ حمل عنوان ''محاضرات فى علم اللغة العام Cours de linguistique generale.'' ومن ثَمَّ، يمكن القول أن المبادئ الأولى للبنيوية – الحديثة والمعروفة – قد تم طرحها في سياق علم اللغة واللسانيات .

وفي أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، حمل أحد أعلام المدرسة الشكلية الروسية، وهو رومان جاكوبسون (1896 – 1982)Roman Jakobson ، راية المنهج البنيوي، بعد اطّلاعه على أعمال دو سوسور. وكان ذا حماسٍ شديد لهذا المنهج، حتى أنه بعد مغادرته موسكو إلى براغ في عام 1920 نتيجة الضغط السياسي الذي واجهته المدرسة الروسية، دعا فوراً إلى تأسيس حلقة براغ الألسنية خلفاً لحلقة موسكو، وهى حلقة عملت على استخدام المنهج البنيوي في أبحاثها ودراساتها. وفى عام 1928، عكف جاكوبسون –مع زميله يورى تينيانوف Youri Tynyanov (1894 – 1943) – على كتابة البيان البنيوي تحت عنوان ''إشكاليات في دراسة اللغة والأدب''، والذي كان بمثابة تطبيق للنموذج البنيوي الذي طرحه دو سوسور للغة في مجال الأدب، لينشأ بذلك رافد البنيوية الأدبية.

2 . البنيوية لغةً واصطلاحاً:

كلمة بنيوية مشتقة من لفظة ''بناء'' أو ''بنية''. و''تشير الدلالة اللغوية لكلمة ''بنية'' على أنها موضوع منتظم، له صورته الخاصة ووحدته الذاتية، فحين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشخصية أو البناء اللغوي، فإننا نشير بذلك إلى وجود نسق عام، أهم ما يتصف به هو عنصر

النظام، فالبناء هو صورة منظمة لمجموعة من العناصر المتماسكة. ومن ثَمَّ، فإن التعريف المبسط للبناء أو البنية يقوم على اعتباره ''مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عددٌ لا حصر له من النماذج والمعانى . وبالتالى، فإن أي زيادة في المبنى يفضى إلى زيادة في المعنى؛ إذ يؤدى كل تحول في البنية إلى تحول في الدلالة؛ لأن كلمة ''بنية'' في أصلها تحمل معنى المجموع والكل، وأنها عبارة عن عناصر متماسكة، يتوقف كلٌ منها على ما عداه، ويتحدد من خلال علاقته بما سواه.

أما من حيث التعريف الاصطلاحي للكلمة، فغير متفق عليه، رغم انقضاء ما يربو عن خمسة عقود منذ اشتهار الفكر البنيوي؛ والسبب في ذلك يرجع إلى الأشكال المتنوعة العديدة التي تجلت فيها البنيوية؛ الأمر الذي حدا بميشيل فوكو –أحد رواد حركة ما بعد البنيوية– إلى القول بأنه ''من الصعب إعطاء مفهوم للبنيوية، وذلك لأنها تجمع اتجاهات ومباحث وطرقاً مختلفة؛ إنها مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة؛ أي مجمل العلامات والآثار التي تركها الإنسان خلفه، والتي ما زال يتركها إلى يومنا هذا.

وقد يكون استخدام البنيوية لكثيرٍ من المناهج والتطبيقات النقدية، التي يحاول كلٌ منها إعطاء فهم لدلالة لفظة البنية – هو الذي جعل من الأخيرة كلمة واسعة فضفاضة لا تكاد تعني شيئاً، لأنها تعني كل شيء. وفى ذلك يذكر تيرى إيجلتون: ''أن كلمة بنيوية ذاتها تشير إلى منهج في البحث يمكن تطبيقه على مجال كامل من الموضوعات، من مباريات كرة القدم وحتى أساليب الإنتاج الاقتصادية.

وللخروج من هذه الدائرة الخلافية، نذكر إجمالاً أن البنيوية ''تُعنَى في معناها الواسع بدراسة ظواهر مختلفة كالمجتمعات، والعقول، واللغات، والآداب، والأساطير، فتنظر إلى كل ظاهرة من هذه الظواهر بوصفها نظاماً تاماً، أو كلاً مترابطاً؛ أي بوصفها بنيةً، فتدرسها من حيث نسق ترابطها الداخلي لا من حيث تعاقبها وتطورها التاريخيين. كما تُعنَى أيضاً بدراسة الكيفية التي تؤثر بها بُنَى هذه الكيانات على طريقة قيامها بوظائفها. أمّا في معناها الضيق والمألوف، فالبنيوية محاولة لإيجاد نموذج لكلٍّ من بنية هذه الظواهر ووظيفتها على غرار النموذج البنيوي للغة، وهو النموذج الذي

وضعته الألسنية في أوائل القرن العشرين... "والذي يهتم بدراسة اللغة بذاتها ولذاتها"، وذلك على خلاف ما كان سائداً قبل ذلك من حيث نزوع الفلاسفة وعلماء الاجتماع ونقاد الأدب على دراسة اللغة من وجهات نظرهم المختلفة وتبعاً لغاياتهم المتباينة.

ومن ثَمَّ، يمكن القول أن الهدف الرئيسي للبنيوية هو توفير منهجية موضوعية وعلمية عامة، قابلة للتطبيق على كافة ممارسات العلوم الإنسانية من خلال أطر ومفاهيم وآليات لغوية نموذجية تتكفل بتقديم وصف نظامي للبنية؛ بمعنى وصف القوانين والأحكام والقيود التي تجعل ظاهرةً ما تعمل كما تعمل اللغة من خلال التحكم في منطق نظام البنية وأدائه.

ومن هذا المنطلق، أضحت البنيوية تتماس مع علوم كثيرة كالسياسة والاجتماع وعلم النفس، كما يتضح ارتباطها الوثيق باللسانيات وعلم اللغة؛ فاللغة هي المنشأ الأول للمنهج البنيوي، وهو بذلك فرع من اللسانيات. ولهذا لم تنكر البنيوية فضل علم اللغة عليها؛ إذ أرجعت أنواع الثقافات جميعها إلى اللغة، بعد دعواها أن الأخيرة هي المهيمنة على أنشطة الإنسان كافة، وقامت بتطبيق النظرية الألسنية على مواضيع أخرى غير اللغة ذاتها.

3 . خصائص المنهج البنيوي ومبادئه الأساسية:

يتسم المنهج البنيوي بعددٍ من الخصائص والمبادئ العامة والأساسية، والتي جعلت منه منهجاً مثيراً فريداً يمكن تطبيقه على أي من المجالات العلمية المختلفة. ولعل من المفيد قبل سرد هذه الخصائص العامة الإشارة أولاً إلى أن البنية موضوع منتظم، له صورته الخاصة ووحدته الذاتية، وأنها مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عددٌ لا حصر له من النماذج والمعاني.

وهذه هي الخصائص العامة للمنهج البنيوي ككل:

- **أسبقية الكل على الجزء:**

من أهم المبادئ المسلَّم بها في المنهج البنيوي هو وجود أسبقية للكل على الجزء. فالمنهج البنيوي يتميز بالنظرة الكلية إلى الموضوع أو الظاهرة محل البحث، وهو بذلك يتبع مدرسة الجشطالت Gestalt التي تنظر إلى الكل قبل الجزء، بيد أنه يتميز عنها بأنه يبحث في علاقات الأجزاء والبنى ببعضها البعض، بعكس الجشطالت التي تكتفي بمعرفة الكل وأجزائه بصرف النظر عن العلاقات التي تربط

تلك الأجزاء .وبمعنىً أعم، فهو يسعى للتغلب على مشكلة التجزؤ والانقسام عبر محاولة التوصل إلى قواعد وثوابت كلية محددة في كل الميادين البشرية. فالكشف عن ''الكل المنتظم'' هو الهدف النهائي من أي دراسة.

- **استقلالية الظاهرة وتجريدها عن روابطها الخارجية:**

يقوم المحلل البنيوي بعزل النص أو الظاهرة محل الدراسة عن الأحداث التاريخية والاجتماعية المرتبطة بكليهما . فهو منهج يدرس الشيء في ذاته ولأجل ذاته، ويتعامل معه بعيداً عمَّا يدور خارجه، من قبيل علاقته بالواقع الاجتماعي أو الحالة النفسية للشخص المرتبط به، فيتم التعاطي مع هذا الشيء باعتباره بنية مستقلة في نهاية المطاف . وخلاصة القول أن المنهج البنيوي لا يعتد بأي شيء خارج النص أو الظاهرة، ويرفع شعار ''موت المؤلف.''

- **لا مركزية التحليل:**

يتوقف مفهوم البنية والعلاقات بين البنى على السياق بشكلٍ كبير، ما يمكن معه القول بأن الفكر البنيوي فكر لا مركزي؛ لأن محور هذه العلاقات لا يمكن تحديده مسبقاً، وإنما يختلف موقفه باستمرار داخل النسق أو النظام الذي يضم البنية مع غيرها من البنى.

- **الاهتمام بالنسق وإهمال المعنى:**

يفترض المنهج البنيوي أن لكل مؤلف أو ناقد أو محلل تصوره الخاص عن البنية التي تشكل ظاهرة ما، ويعود السبب في ذلك ببساطة إلى أن البنيوية تهمل المعنى وتهتم بالنسق وطريقة نظمه. وبالتالي، فإن النتيجة المترتبة على ذلك هي نسبية المعاني وتنوعها وتعددها من محلل لآخر، وذلك قد يكون في المجال العلمي الواحد والظاهرة الواحدة، ناهيك عن حدوث ذلك بالطبع فيما بين ميادين العلوم المختلفة.

- **الاعتماد على القيم الخلافية والمتناقضة:**

يقابل المنهج البنيوي بين الظواهر أو المفاهيم المختلفة وينظمها في سياقٍ واحد، مستغلاً اختلافها؛ إذ تعتقد البنيوية أن المفاهيم الجديدة يكون لها معنى أفضل في الذهن حينما تتباين وتختلف مع مفاهيم أخرى. والكلمة الواحدة في نسقٍ ما لا يُعرَف معناها إلا من خلال اختلافها عن

الكلمات في النسق ذاته ثم بالكلمات الأخرى داخل النص المحدد. وهكذا يعترف المنهج البنيوي بالفوارق بين الظواهر والمفاهيم المختلفة، محاولاً معرفة العلاقة بينها، وتنظيمها حول محور واحد بحيث تبدو كتنويعات مختلفة لشيء يتسم بالتوافق والائتلاف.

- **الامتداد عمقاً لا عرضاً:**

يهتم المنهج البنيوي بالدراسة التفصيلية لظواهر وموضوعات معمقة محددة؛ إذ من غير المجدي دراسة موضوعات كثيرة بشكل سطحي، فهذا لن يؤدى إلى أي نتائج ذات قيمة. ومن ثَمَّ، يعتقد المحلل البنيوي –أياً كان مجاله– أنه من الأفضل دراسة ظواهر قليلة بتحليل عميق، والمهم هو اختيار مواضيع تسمح بصياغة أحكام حاسمة لأنها تمثل غيرها تمثيلاً صحيحاً، عملاً بمبدأ القيم الخلافية والمتناقضة. وعليه، يمكن الادعاء بأن هذا المنهج يعتمد على الاستنتاج والاستنباط أكثر من اعتماده على الاستقراء.

- **الطبيعة التحليلية التركيبية:**

فالمنهج البنيوي يقوم على تحليل الظاهرة إلى أجزائها وبنياتها المكونة لها لمعرفة العلاقات بين هذه الأجزاء وبعضها البعض، ومن ثَمَّ إعادة تركيبها من جديد في بناء أشد قوة وأكثر رقياً. وعليه، فإن هذا المنهج يحاول استخدام أعلى المستويات المعرفية وأرفع الأداءات العقلية الممكنة للوصول إلى المستوى الإبداعي في التحليل.

- **ازدواجية التحليل ما بين التجريبي والعقلي:**

على الرغم من اهتمام المنهج البنيوي بالعقل قبل الحواس، ونظرته الدونية للمنهج التجريبي، إلا أن الخصائص المذكورة أعلاه تؤكد على أنه يقوم على خطوات ذات طابع تجريبي، كما يقوم على مبادئ ذات طبيعة عقلية، وهذه الطبيعة الازدواجية جعلت منه منهجاً علمياً متميزاً قائماً بذاته، يشكل مَعْلماً من معالم تطور المناهج العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

4 . البنيوية والدرس اللساني:

سبق القول أن المنهج البنيوي قد شاع استخدامه في كثيرٍ من الميادين العلمية، وكانت النتيجة أن ظهرت عدة صور أو مصطلحات مثل البنيوية اللسانية والبنيوية الأنثروبولوجية والبنيوية السياسية... إلخ.

والبنيوية اللسانية ترتبط بعلم اللغة أو الألسنية أو اللسانيات، وتدور حول المفردات والكلمات اللغوية ودلالاتها والروابط التي يمكن أن تنبني عليها ووفقها، ورائدها -كما سلف الذكر- هو **فرديناند دو سوسور**، وأعماله في هذا الميدان تُعَد من أشهر ما تُوِّجَت به البنيوية الألسنية، كما كانت نبراساً انتقل في ضوئه لُب النموذج البنيوي السوسورى إلى باقي الميادين العلمية. ولقد كان "العنصر الأساسي في نظرية دو سوسور هو تصوره اللغة بوصفها نظاماً بنيوياً يشكل أساساً لكل استخدام لغوى أو لكل كلام، سواء كان نطقاً أم كتابةً. وثمة عنصر ثانٍ هو العلاقة —الاعتباطية في جوهرها— بين أصوات اللغة والمفاهيم التي تعبر عنها هذه الأصوات. وهذا ما يدعوه سوسور اعتباطية العلامة أو الإشارة .

هذا فضلاً عن عناصر أخرى تشتمل على التمييز بين الدراسة التاريخية (التزامنية) للغة وتبدلها والدراسة (التزامنية) لبنيتها الداخلية في لحظة معينة؛ والتمييز بين المحور التركيبي للغة، وهو المحور الذي تتم بواسطته سَلسَلَة وتجميع العلامات مع بعضها البعض، وما بين محور التداعي الذي يستدعى بواسطته كل دال دوال أخرى كثيرة ليست حاضرة، والتمييز بين نظامَي التقابل بين الأصوات والتقابل بين المفاهيم، الأمر الذي يساعد على الحد من اعتباطية الدال.

ولقد مارس هذا النموذج السوسورى فى دراسة اللغة تأثيراً هائلاً على ألسنية النصف الأول من القرن العشرين، وظل يمارس بعض التأثير حتى منتصف الخمسينيات، حين أفسح المجال لقواعد البنيوية التوليدية أو التحويلية (أو نظرية النحو التوليدي) التي كان رائدها **نعوم تشومسكى** Noam Chomsky. والواقع أن البنيوية التوليدية تُعَد مرحلة متقدمة على تلك اللسانية التقليدية التي ابتدعها دو سوسور، وهى تقوم على مبدأين: الأول مبدأ الاكتساب اللغوي؛ والذي يعنى أن اللغة يكتسبها الفرد منذ صغره من خلال بنية اللغة الضمنية التي يمتلكها بالفطرة والتي تمكِّنه من التعلم السريع لأي لغة، وعلى هذا الأساس يختلف الإنسان عن الحيوان. ثانياً: مبدأ الإبداع اللغوي؛ إذ ما

دامت اللغة خصيصة إنسانية، تميز البشر عن غيرهم من الكائنات الحية، فيُفتَرَض أنه يوجد ما يميزها، ولعل من أهم ما يميزها هو صفة الإبداع، بمعنى قدرة الإنسان على إنتاج وصياغة وتوليد وفهم عدد غير متناهٍ من جمل هذه اللغة حتى ولو لم يكن قد سمعها من قبل.

والحق أن البنيوية التوليدية قد اختلفت عن البنيوية التقليدية في عددٍ من النقاط:

أولا :فمن حيث الموضوع؛ كانت بنيوية دو سوسور تتخذ من النصوص اللغوية موضوعاً لدراستها، على حين اتخذت المدرسة التحويلية من قدرة المتكلم على إنشاء الجمل التي لم يكن قد سمعها من قبل موضوعاً لها.

ثانياً :من حيث أسلوب الدراسة والتحليل؛ كانت الأولى تعتمد على وسائل الاستكشاف، فيما تؤمن الأخرى بضرورة الحدس والتخمين، ثم إجراء الاختبار لتقويم الفروض المتضاربة.

ثالثاً :من حيث الهدف؛ كانت الأولى تهدف إلى تصنيف عناصر اللغات المدروسة، بينما اهتمت الأخرى بتعيين القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجملة. وهذا يعنى الكشف عن وجود عدد غير متناه من الجمل في أية لغة، وتوضيح أي نوع من سلاسل الكلمات تشكل جملاً، وأيها لا يشكل جملاً، وكذلك وصف البنية النحوية لكل جملة.

أخيراً :بينما رأت مدرسة دو سوسور أن لكل لغة بنيتها التي تتفرد بها، يرى التوليديون أن اللغات تتشابه على مستوى المقصود أي المعنى المراد العميق، ويحاولون الكشف عن هذه التشابهات الكلية.

5 . المدارس البنيوية ومناهجها:

1 . مدرسة جونيف:

استند تلاميذ سوسير ؛ شارل بالي (1865-1947)، وألبير سيشهاي (1870-1946) وهنري فراي، إلى تعاليم أستاذهم وتنظيراته اللسانية مشكلين بذلك مدرسة اصطلح عليها مدرسة جونيف ، وقد تميزت هذه المدرسة " بنزعة قوية إلى الدراسات التي تعالج العنصر الانفعالي (التأثيري) في اللغة، عن طريق التمسك باللسانيات الآنية ، والإيمان بأن اللغة نظام ذو وظيفة اجتماعية مهمة ويمكن التماس الصورة التقليدية لهذه المدرسة في النظرة اللسانية لشالر بالي "ذلك أن شالر بالي اشتهر بكونه مؤسسا للأسلوبية العقلانية (rational stylistics) التي كان همها هو فحص التعابير

اللسانية الانفعالية بوجه عام. فكل حدث من أحداث النطق يحمل طابعا شخصيا أو انفعاليا. وعلى نهج سوسير لجأ شالر بالي إلى التمييز ين اللغة واللسان والكلام ، وطور من خلال ذلك نظريته الخاصة بالتحقق. actualisation وعملية التحقق هذه تتعلق بتحول اللغة إلى كلام ؛ أي من الافتراض إلى التحقق الواقعي . كما قام بتأسيس نظريته على المناظرة السنيتاجمية والوظيفية syntagmatic and functional transpostion ؛ وتعنى هذه النظرية بالمبادئ التي تحكم عملية تغيير العلامة اللغوية لوظيفتها النحوية دون أن تغير من معناها المعجمي الأساسي . وقام كذلك بفحص التواليف النظمية (أي توليف الكلمات على مستوى النظم)، وكان في هذه المسألة منتصرا لمبدأ الثنائية (binarity).

2 . مدرسة براغ:

تأسست مدرسة براغ التشيكوسلوفاكية سنة 1926 من طرف فيلام ماتزيوس ، وبعض معاونيه . وكانت معروفة بالمدرسة الوظيفية ، لأن أقطابها بحثوا في اللغة من منور وظيفي . وهذه المدرسة في حقيقتها عبارة عن جمعية لسانية تدعى " حلقة باغ ".نهلت من أفكار دي سوسير وبودوان دي كورتيناي (1845-1929) "Bodouin de courtenay"، ومدرسة فورتوناتوف fortunatov السلافية. وقد استوت هذه المدرسة على سوقها بفضل مجهودات شخصيات ثلاث ؛ وهم في الحقيقة مهاجرون روس رومان ياكبسون (1896-1982) . وس.كارسيفسكي (1884-1955). ون. تروبوتسكوي (1882-1945) ، وب .ترينكا ، وب .هافرينك ، وي.موكاروفسكي الذي كان منظرا في الدرس الأدبي . وتعتبر مدرسة براغ فرعا من فروع البنيوية ، وهو ما أكده أحمد مومن في قوله : " وما اللسانيات الوظيفية إلا فرع من فروع البنيوية ، بيد أنها ترى أن البنية النحوية والدلالية والفونولوجية للغات تحدد بالوظائف المختلفة التي تقوم بها في المجتمع ."

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه المدرسة منهجا يرى أن اللغة نظام كلي بمستوياتها النحوية والصرفية والصوتية والدلالية، ويدرسها دراسة وظيفية . إن اللغة في الإطار الوظيفي شبيهة بالميكانيزم ؛ إذ لكل عنصر

من عناصره دور في إقامة النظام العام . وإذا كان سوسير يعتبر اللغة نظاما من العلامات ، فمدرسة براغ ترى أنها " نظام من الوظائف وكل وظيفة نظام من العلامات. "

3 . مدرسة كوبنهاغن:

مرت هذه المدرسة بمرحلتين بارزتين ، المرحلة الأولى منهما هي التي كانت تدعى فيها بمدرسة كوبنهاغن ، والتي تم فيها تبني أفكار كل من برونداال وهيلمسليف ، في نهاية الثلاثينات من القرن العشرين . واعتمد اللسانيون في هذه المدرسة على المنطق الرمزي في تحليل المادة اللسانية . وقد كان فيجو برونداال (1847-1942) هو الشخصية البارزة في هذه المرحلة ، إلا أنه توفي قبل أن يتم نظريته اللسانية ، لتعود القيادة بعده إلى هيلمسليف . وهكذا عرف برونداال بوصفه أحد رواد البنيوية ، ومن أوائل من حاولوا مقاربة اللغة بإتباع مناهج المنطق الرمزي. ويرى أحمد مومن أنها من تأسيس الدانماركي هيلمسليف (1895-1965) في مطلع القرن العشرين ، وكان ينظر إليها في بدايتها على أنها مجرد نظرية فقط تعرف باسم الغلوسماتكية ، إلا أنها سرعان ما تشكلت في مدرسة قائمة الذات . وكانت تنظر إلى اللغة على أنها بنية أو نظام . وقد اهتم بها هيلمسليف أكثر مما اهتم بالكلام . واعتبرها هدفا لا وسيلة . إنها بالنسبة له بنية منغلقة على ذاتها في استقلال عن كل المؤثرات الخارجية . فهي "عملية رمزية."

وهكذا استطاع أصحاب هذه المدرسة بفضل تلك الأفكار أن يقيموا صيغة علمية في دراسة اللغة كبديل عما كان سائدا قديما ، جاعلين وظيفة العناصر (وحدة صوتية – وحدة صرفية –كلمة – تركيب) في تشكيل المعنى العام للجملة. ويتجلى الفرق بين سوسير وهيلمسليف في كون هذا الأخير حاول دراسة اللغة بمعناها العام.

وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة ما عرف بالمدرسة الغلوسماتكية ، التي هي نتاج للتطور الذي عرفته مدرسة كوبنهاغن.

المدرسة الغلوسماتكية:

بعدما أصبح هيلمسليف المنظر الرائد لمدرسة كوبنهاغن ، اقترح مقاربة شكلانية formalistic لدراسة اللغة في الثلاثينيات . عرفت ب"الغلوسماتكية .glossematics " أكد من خلالها على

ضرورة خلق لغة عليا شارحة meta language تكون وسيلة للتعريف العلمي. ويتفق هيلمسليف في هذا الإطار مع سوسير في أن اللغة (صورة) أو (شكل) لا (جوهر) أو (مادة). ولم يكتف بذلك بل تعداه إلى القول بأن التنظيم اللساني (المسؤول عن تماسك العلاقات داخل الكل اللساني الموحد) يمكن استخراجه من المادة التي ينظمها ، ومنه فالبنية في نظره قابلة للانفصال عما تبنيه . وقد أخضع هيلمسليف مذهبه اللساني لنظرية العلاقات التواصلية ، فلسانيته ذات طابع مقاماتي براغماتي paragmatic هدفه وضع نظرية عامة للعلامات التواصلية لأجل إنجاز "لغة عليا " للترجمة الآلية ' وقد حاول جاهدا إيجاد نحو منطقي وبالتالي إيجاد معالجة علمية للغة ، تكون في أعلى درجة من الدقة والوضوح والعلمية . ولعل أهم منجزات هيلمسليف هي إدخاله لمفهومي المائزين الجديدين إلى البحث اللساني وهما:

- التمييز بين التعبير expession والمحتوى.content
- والتمييز بين الشكل form والمادة . substonce

فكان بذلك قد حدد عمل الغلوسماتكيين في دراسة التعبير في علاقته بشكل المحتوى ، فاستحقوا بذلك اسم الشكلانيون.formalists .

لقد استعمل هؤلاء التجريدات في دراساتهم للغة ، لأنها بالنسبة لهم ظاهرة باطنية emmanent phrencemenon غير طالعة للتجربة الإدراكية .إنها نسق من العلاقات ، لهذا لم يهتموا بالبحث الآني أو التزامني . بل كان التوجه المميز لهم هو التطلع لما هو أساس في البنية اللغوية ، وهو العلامة اللغوية.

وعموما فالنظرية الغلوسمتكية هي نظرية شكلية منطقية ، تعارض كل من النظرية الذهنية mem- talistic، ومذهب السلوكية .behauiourism

منهج الدراسة:

يهدف منهج هاتين المدرستين (براغ والغلوسماتكية) إلى دراسة اللغة دراسة علمية في ضوء العلوم الدقيقة (كالرياضيات)، وتتضح الخطوات العريضة لهذا المنهج فيما يلي:

•النزعة المضاضة للميتافيزيقيا ، والتي تنص على كون الجمل الميتافيزيقية ليست خاطئة ، بل خالية من المعنى ، وأن تشابه هذه الجمل بتركيب الجمل غير الميتافيزيقية ما هو إلا أحبولة دلالية semantic smare .

•المبدأ التجريبي فقد كان معنى الجملة في البداية يحدد بطريقة تجريبية تحقيقية .مما أدى إلى تناقضات عديدة أدت بالوظيفيين المنطقيين إلى أن يتبنوا موقفا ضعيفا يقول : إن العلم ينبغي أن يشمل كل الوقائع التجريبية الممكنة بواسطة الاستدلال المنطقي ، انطلاقا من أقل عدد ممكن من المسلمات.

•التركيز على وصف التركيب ، لان وصف المضمون يتناول أشياء لا يمكن ملاحظتها ، أو الإبلاغ عنها بطريقة غير مباشرة ؛ كإدراك الألوان مثلا . وفي هذه الحالة يكون وصف العلاقات بين الظواهر أكثر ملاءمة.

•تحويل اللغة العلمية إلى علم الجبر (aalgebr) ينبغي أن يقصي استعمال كل التراكيب الخاصة بالجمل الميتافيزيقية من الخطاب العلمي ، كما ينبغي أن تحد العبارات دون غموض أو تناقض ، فهذا المنهج منهج تحليلي استنباطي يدرس اللغة على أنها صورة لا مادة ، وأنها حالة خاصة من حالات النظام السيميائي .فهو يتخذ من النص موضوعا للدراسة ، لأنه حسب هيلمسليف ؛ جملة من الاستنتاجات المفصلة عن المحتوى (الخطاب أو الحديث) والمتجسدة في قضايا خاضعة لمتطلبات المنطق الصوري . وجدير بالإشارة إلى أن هيلمسليف قد استعمل النص كمرادف للمعطيات اللغوية) (dataأحيانا وللدلالة على بعض حروف الجر أحيانا أخرى نحو : على ، في ، إلى ...

وعلى العموم فقد تم اعتماد مناهج علمية رياضية ، جمعت بين مبادئ النحو التقليدي ، ومظاهر النظرية اللسانية الحديثة ، وبين مسلمات المنطق الصوري ، والأسس المعرفية العامة . ويتجلى هذا في اعتماد الجبر والرياضيات بشكل مبالغ فيه ، مما جعل هذه المدرسة عرضة لانتقادات مجموعة من الباحثين الذين اعبروا النظرية الغلوسماتكية أساءت إلى اللسانيات أكثر مما أفادتها لاستعمالها عدة رموز ، ليست لها أي قيمة علمية ، وذلك من قبيل:

- R(v) °g °y : الصيغة التي تدل على المحور الركني أو الأفقي.
- R (v) °g °Y : الصيغة التي تدل على المحور الاستبدالي أو الرأسي.

- (v) 1 y° g° : تدل على مصطلح النص(texte).
- (v) Y° g° : تدل على مصطلح النظام (system).

4 – المدرسة الوصفية بأمريكا:

قامت دعائم هذه المدرسة بفضل مجهودات ثلاث أعلام : بلومفيلد، وفرانز بوهاس ، وإدوارد سابير. هيمنت أفكار هذه المدرسة طيلة القرن العشرين ، ومن المنطلقات التي استندت إليها نذكر ؛ الأنتروبولوجيا ، والدراسات الحقلية التي عنيت بتصنيف اللغات الهندية الأمريكية التي كانت منتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية ، حفاظا عليها من التلف والتلاشي . فانصب اهتمامها بالأساس على اللغات المنطوقة لا المكتوبة ، مع الابتعاد عن إقحام المنطق والمعنى في تفسير الظاهر اللغوية، مع التركيز في مقابل ذلك على وصف خصوصيات كل لغة على انفراد في زمان ومكان محددين .

منهج الدراسة:

اعتمدت المدرسة الوصفية في شخص بلومفيلد منهجا أطلق عليه اسم " المنهج المادي " (materialistic) درس من خلاله اللغة دراسة علمية مستقلة ، ناهلا من علم النفس السلوكي، مفسرا بذلك السلوك البشري بناء على ثنائية المثير والاستجابة (stinulus et la response) ، وتماشيا مع النظرة الفيزيائية ، التي تفسر الظواهر تبعا لمبدأ العلة والأثر cause and effcet) (sequences فهو ينظر إلى اللغة في عمقها المادي رافضا كل ما هو ذهني خارج عن نطاق التجربة . وقد تعرض بلومفيلد هو الآخر لمجموعة من الانتقادات خصوصا حينما شبه السلوك البشري بسلوك الحيوانات التي تقام عليها التجارب، من قبيل الكلاب والقطط والقردة ، متجاهلا ما ميز به الله الإنسان عن الحيوان ؛ وهو العقل الذي يختزل الوعي ، وهو " الجانب الخلاق في اللغة، الذي كان قد أكد عليه ديكارت وهمبولت من قبل ثم تشومسكي فيما بعد وهذا ما فتح عليه باب الانتقادات من قبل العقلانيين."

ويمكننا أن نجمل مناهج التحليل البنيوي بصفة عامة؛ في أن اللغة في حقل البنيوية تشكل في ترابط أجزائها رتبا ومستويات تتفاوت فيما بينها (الفونولوجيا ، الصرف ، التركيب ...) وكل مستوى من هذه المستويات يترابط مع ما يجاوره ." فالفونيمات تتحدد بتداخلها في المورفيمات ، وهذه

الأخيرة بوظيفتها في الجملة " وهذا ترابط تكاملي بين أجزاء اللغة .فترابط الفونيمات ينتج عنه مورفيمات ، وترابط المورفيمات يشكل كلمات ، وترابط الكلمات يعطي تركيبا (جملة) . وتكاد لا توجد خلافات بين المدارس البنيوية في استعمال المنهج إلا في تصنيف عدد المستويات في نظام لغوي معين . فأندري مارتنيه مثلا يرى وجود قيمة خلافية بين مستوى الفونولوجيا (الفونيمات)، والمستوى الصرفي (المونيمات) ويشرحها على أنها نظام مزدوج للكلام ، الأول غير دال ، والثاني دال . فالبنيوية تقسم اللغة إلى عدة مستويات متداخلة ، وفي اعتمادها على تلك المستويات " توضح أنها منهج تركيبي تتداخل فيه هذه المستويات التي توجد بينها بعض التقاربات المختلفة الأهمية ، لكنها في مجملها تهدف إلى الترتيب أو التصنيف المنظم للأنواع". ويبدو أحيانا أن المدارس البنيوية تختلف من حيث المنهج، لكن ذلك راجع إلى اختلاف وسائل التطبيق . إذن فهي تعتمد في مجملها منهجا استقرائيا ، واستنباطيا في تحليلها للعينات اللغوية .لأن " القواعد التركيبية syntaxe تستقرأ من تحليل النص أو العينة اللغوية المختارة للدرس corpur كنموذج ، وعندما تحدد هذه القواعد فإنها تستعمل بطريقة عكسية حتى تتميز الجمل الصالحة عن غيرها تركيبا ، طبعا ستكون انطلاقا من ذلك جمل أخرى غير موجودة في النص المختار عن طريق بناء نماذج أخرى متشابهة ، وتعميم ذلك على هذه النماذج المتشابهة."

المحاضرة الخامسة: المنهج التوليدي التحويلي

تمهيد:

لقد عرف القرن الماضي ثورة علمية كبيرة مست مجال اللغة بشكل خاص؛ إذ اكتسحت اللغويات مختلف الحقول المعرفية، حتى غدا هذا القرن قرن اللسانيات بامتياز. فبعدما ذاع صيت اللسانيات البنيوية، وأصبح الباحثون والدراسون على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم العلمية والفكرية يتعاملون مع أعمالهم المعرفية، وفق أسس وقواعد النهج البنيوي اللساني الذي قعّد له سوسير، ظهر تشومسكي ليؤسس مدرسة لغوية جديدة، قائمة على مبادئ مغايرة لما سبقها من المدارس اللسانية، ومستثمرا، في الوقت نفسه، جهود بعض أساتذته المنتمين إلى التيار التوزيعي، مثل زيليك هاريس. وهذه المدرسة هي المدرسة التوليدية التحويلية التي أضحت حديث زمانها، وما زالت قائمة تطور مشروعها اللساني، عبر جهود وأعمال الساهرين والقائمين على العمل في هذا التخصص.

لقد كانت نظرية تشومسكي اللسانية بمثابة طفرة حقيقية غيرت من مسار اللسانيات، ورسمت لها طريقا نحو تحقيق نجاحات باهرة. وسوف نبدأ بالتعرف على مؤسس النظرية التوليدية التحويلية نعوم تشومسكي، ثم نتعرف على نظريته اللسانية.

1 . الحياة العلمية لتشومسكي:

أ . مسيرته الدراسية والتدريسية:

هو أفرام نعوم تشومسكي، من مواليد7 ديسمبر1928م، وذو أصول يهودية، درس في بنسلفانيا في إحدى مدارس ديوايت "التي كانت تشتهر بتقدمها في أساليب التعليم"، وطلب جملة من العلوم من منطق وفلسفة وتاريخ ورياضيات، التي نجد آثارها واضحة أشد الوضوح في أعماله ذات الطبيعة اللغوية.

أتم تشومسكي دراسته الجامعية وتتلمذ على يد أستاذه زيليك هاريس Zilic Haris أستاذ اللغويات. "كما تعلم قسطا من مبادئ اللسانيات التاريخية على يد والده، الذي كان عالما في العبرية، وقد قدم جزءا من بحثه الأول في اللغة العبرية الحديثة، عندما نال درجة الماجستير."

حصل تشومسكي بعد جهود كثيرة على درجة دكتوراه الفلسفة في اللغويات عام 1955م، وقام بأبحاث لغوية عديدة عقب انتسابه إلى جمعية الرفاق بجامعة "هارفرد".

وهكذا، ظل تشومسكي يترقى في مسيرته العلمية حتى تسلم منصب الأستاذية في قسم اللسانيات واللغات الحديثة، و"الذي أصبح اسمه الآن قسم اللغويات والفلسفة"، إضافة إلى ذلك، فقد عُين أستاذا بمعهد ماساشيو سيتسي سنة 1955م بعد التقائه بموريس هال؛ الذي "ساعده على الحصول على مركز بحث في المختبر الصوتي الإلكتروني بالمعهد نفسه، وتدريس اللغتين الألمانية والفرنسية بها. هذا وقد وطأت قدماه الكثير من الجمعيات؛ كالجمعية الأمريكية للتقدم العلمي، وأيضا الأكاديميات؛ كالأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم وغيرها. علاوة على ذلك، فقد ألقى محاضرات في بلدان كثيرة؛ كمحاضرة بيكمان عام1967 في كاليفورنيا، ومحاضرة "جون لوك" عام1969 في جامعة أكسفورد، وغيرها...

ونعوم تشومسكي من رواد النظرية اللسانية الموسومة بالنظرية التوليدية التحويلية، بل من المؤسسين لها؛ حيث سعى بكل جهده إلى بناء نسق منهجي يكشف عن البنى التي تشتغل في ذهن المتكلم المستمع المثالي، ليخلص في الأخير إلى تسطير ثلة من القواعد والنظريات التي تحكم عملية إنتاج عدد لا محدود من الجمل النحوية، انطلاقا من عدد محدود من القواعد، إضافة إلى ما تخضع له هذه الجمل من تحويلات وتبديلات.

عاش تشومسكي طفولته في الوقت الذي كانت تعرف فيه الولايات المتحدة الأمريكية كسادا اقتصاديا، وهو ما يعرف بالأزمة الاقتصادية لعام1929م، مما انعكس على حالته النفسية، وخاصة ما ترسخ في ذاكرته من المشاهد المحفوفة بالقمع الذي مارسته السلطات على العمال، جراء إضراباتهم ومطالبتهم بحقوقهم، فكانت هذه الظروف إرهاصات أولية كونت لديه حسا نقديا وحدسا ثوريا أهَّلاه إلى دخول مضمار السياسة والخوض في صنوف مواضيعه.

فصار تشومسكي بالإضافة إلى كونه باحثا لسانيا، من المنتقدين البارزين والمعارضين للسياسة الأمريكية، إذ أصدر جملة مقالات في هذا الشأن كانت من أقواها، تلك التي بثَّها في أول كتاب له بعنوان "القوة الأمريكية والمانداريون الجدد"، وله كتاب آخر موسوم ب"ماذا يريد العم سام؟." وما

يمكن قوله في هذا المقام، أن الفلسفة الاجتماعية التي حاول تشومسكي أن يعرضها في أعماله السياسية، أماطت اللثام عن سياسة المكر والخداع والتزييف الذي تتخبط فيها السلطات الحكومية الأمريكية، والتي تحاول جاهدة أيضا قلب الصورة التي هي عليها من الأسوأ إلى الأحسن، فتكون بذلك الانتقادات الحادة الموجهة لهذه السلطات من قبل تشومسكي، قد كشفت عن حقائق عدة لم تكن في الحسبان.

بالإضافة إلى اهتمام تشومسكي بدراسة اللغة العبرية الحديثة التي برع فيها والده وأجاد، فقد نالت العربية هي الأخرى حظا وافرا من اهتمام تشومسكي، وهي لغة شأنها شأن العبرية تنتمي إلى قسم اللغات الاشتقاقية لا الإلصاقية، التي تبقى دائما في حاجة إلى سوابق وأحشاء ولواحق حتى يتم معنى الكلمة، أو لإضافة معان جديدة.

وقد "اطلع تشومسكي على اللغة العربية ونحوها أيام كان شابا؛ فقد اطلع على متن الأجرومية لما كان طالبا في المرحلة الجامعية"، وتعلم قواعدها على يد أستاذه روزنتال، مما ينم عن ميوله اللغوي المحض، ورغبته في سن قواعد نحو كلي grammaire universelle تقبله كافة اللغات كيفما كانت.

وتطرح في هذا السياق العلاقة الرابطة بين النحو العربي والنحو التوليدي التحويلي؛ على أساس أن الأول ينتمي إلى العلوم العربية القديمة التي تشكل الأرضية الصلبة، والأساس المتين الحامي لحمى اللغة العربية الشريفة، وأن الثاني من النظريات اللسانية الحديثة التي نمت في أحضان النصف الثاني من القرن المنصرم، حتى غدا قرن التوليدية التحويلية بامتياز. فكيف يمكن تطبيق الثاني على الأول؟؟

ذهب أحد الدارسين ، إلى القول بأن "المبادئ التي ينادي بها التحويليون لا تختلف إجمالا مع ما جاء به نحويو العربية"، وذلك أن النقط المشتركة بين نحو العربية ونحو التوليدية كثيرة جدا، وعلى رأسها أن المنبع الرئيسي لكل منهما هو العقل. غير أن النحو العربي كان سباقا لكل هذه المبادئ التي أقرها التوليديون في شخص زعيمهم تشومسكي، وما يدل على ذلك هو ما تطرق إليه الدارسان من قضايا تفصح عن حقيقة هذا الأمر، ومن أبرزها:

. قضية الأصل والفرع :كقولنا إن المفرد هو الأصل للجمع، وأن النكرة أصل والمعرفة فرع...ويقابلها عند تشومسكي ما يعرف بالبنيتين السطحية والعميقة، فالأصل يمثل التركيب الباطني والفرع يمثل التركيب السطحي.

. قضية العامل : ونجد أن تشومسكي يفرد للعامل نظرية خاصة به، وهي نظرية الربط والعامل، أو الربط العاملي – كما يسميها البعض – التي بلورها عام1981م، فيؤكد أن العامل في المقول هو الفعل، أما عامل الفاعل فهو "الصرفة"، التي تتضمن صفات المطابقة والزمن والجهة.

إذاً، فهذه هي القضايا التي شاعت بين نحاة العربية، وأقيمت حولها خلافات كثيرة، ولا سيما بين مدرستي البصرة والكوفة، وها هو تشومسكي يحاول أن يثيرها مجددا، بل ويصنفها ضمن النظريات المنمذجة.

ومما قد يضاف في هذا السياق أيضا، تلك الخاصية التحويلية التي طبعت جوانب نظرية تشومسكي اللسانية، وهذه الخاصية تحمل في طياتها عدة قواعد من إحلال وتوسع وحذف...، والتي هي نفسها تحضر في الدرس اللغوي العربي ولا تستقيم مسائله الخاصة بهذا الجانب إلا بذكرها.

ومن هنا، يتضح جليا تأثر تشومسكي بالتراث العربي في تكوينه العلمي، ولعل ما أشار إليه بعض الدارسين من قضايا مشتركة بين النحو العربي والنظرية التوليدية التحويلية، فيه من الدلالة ما يؤكد هذا التأثر.

ب . مؤلفاته:

إن الجهود التي قام بها تشومسكي في سبيل بناء نظرية لغوية شاملة لكل الأنحاء، ومقوضة لما سبقتها من نظريات، كان لا بد أن تسفر عن مؤلفات تترجم فكر تشومسكي وتوثقه، وهي مؤلفات صدرت في فترات زمنية متقاربة، من أبرزها:

. البنى التركيبية les structures syntaxique (1957م).

. لبنية المنطقية للنظرية اللسانية la structure logique de la théorie linguistique ألفه في سنة 1955م، لكن صدوره أجل إلى سنة1975م.

. ملامح النظرية التركيبية l'aspect de la structure syntaxiques. (1965م).

. اللسانيات الديكارتية.la linguistique cartésienne (1966م).

. الأنماط الصوتية في اللغات الإنجليزية les types phonologiques de la langue anglaise (1968م).

. اللغة والفكر (1968م).

هذا إلى جانب أعمال أخرى تنم عن عبقرية هذا الرجل وسعة علمه واطلاعه.

2 . نظرية تشومسكي اللسانية.

أ . المبادئ العامة:

كان بزوغ فجر التوليدية التحويلية في النصف الثاني من القرن العشرين، تقويضا لأسس ودعائم المدرسة السلوكية التي سادت قبيل مجيء تشومسكي بمشروعه اللساني. ولعل الغاية التفسيرية التي طبعت هذه النظرية بطابع خاص، كان لها دور أساس في نشوء مرتكزات قوية ومبادئ متينة، دفعت بها إلى تحقيق ثورة كبرى في الدرس اللغوي الحديث.

إن من أهم المبادئ التي أقام تشومسكي على أساسها صرح النظرية اللغوية هي:

. مبدأ الاكتساب اللغوي.

. مبدأ الإبداعية اللغوية.

فلا بد عند ذكر النظرية التوليدية التحويلية من استحضار هاتين الخاصيتين ــإلى جانب خصائص أخرىــ التي تميز اللغة عند التوليديين التحويليين، في حين تغيب عند باقي الأنحاء التي سبقتها، فما المقصود إذاً بهذين المبدأين عند تشومسكي؟

1 . مبدأ الاكتساب اللغوي:

إن خاصية الاكتساب اللغوي عند تشومسكي، مرتبطة أساسا بالمنهج التوليدي ككل، وهو "منهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، وهي قدرة تخص الإنسان وحده"، لذلك يرفض تشومسكي" النظرة الآلية إلى اللغة من حيث كونها عادة كلامية قائمة على المثيرات والاستجابات"، وهي النظرة التي سادت فكر السلوكيين، وقادتهم إلى القول بأن اللغة سلوك لغوي يستجيب لمثيرات خارجية، تخضع لسلطة البيئة بالدرجة الأولى، وأتى تشومسكي بعدهم ليتبنى رأيا

مخالفا، يرجح فيه مسألة" أن الاكتساب اللغوي يكون عن طريق امتلاك الإنسان لمعارف لغوية تتضمن قواعد كلية."

فقد حاول تشومسكي أن يشرح اللغة ويعلل أسبابها من الداخل وليس من الخارج، ذلك أن الطفل يكون قواعد لغته بصورة خلاقة من خلال ما يسمعه من بيئته. وعليه، فإن الطفل يكتسب لغته انطلاقا من الآلية الضمنية التي يمتلكها، والتي تخول له إمكانية التعلم السريع لأي لغة، فالطفل على هذا الأساس، هو الذي يكون مفهوم اللغة ويخلقها شيئا فشيئا، مما يجعله مختلفا عن الحيوان الذي أجريت عليه تجارب عدة، وبينت أنه يفتقد للملكة اللغوية الفطرية التي أودعها الخالق في عباده.

فالقول إذاً، بأن اللغة عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية، من الأمور التي يدحضها تشومسكي، ويرفضها رفضا تاما، ويصر في المقابل على" أن بنية التنظيم المعرفي الذي يصل بالطفل إلى اكتساب اللغة، هي بنية معطاة بصورة مسبقة إلى الطفل ."وبهذا، يكون الاكتساب اللغوي ناتج عن مقدرة الإنسان الفطرية، هذه المقدرة التي يطلق عليها مصطلح الكفاية اللغوية أو القدرة الإبداعية.

2 . مبدأ الإبداعية اللغوية:

كان للفكر العقلاني – الذي ساد أوروبا في القرن السابع عشر – وقع خاص على نظرية تشومسكي اللسانية، بل وقد شكل منطلقاً هاماً لتحديد طبيعة اللغة، ولا سيما القواعد الديكارتية التي حددت لنظريته المعالم الكبرى والخطوات الأساسية التي سيبني عليها منهجه التوليدي التحويلي.

وإذا كانت اللغة هي خصيصة إنسانية، تميز البشر عن غيرهم من الكائنات الحية، فإننا نفترض وجود ما يميز هذه اللغة ويصفها. ومن أقوى الصفات التي تكتسيها اللغة هي صفة الإبداعية، ونقصد بها" مقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل."

فقد نص تشومسكي على هذه الخاصية التي تعلي من شأن اللغة الإنسانية، وأكد على أهميتها، لأنها تمكن المتكلم من" فهم عدد غير متناهٍ من جمل هذه اللغة وصياغته حتى ولو لم يسبق له سماعه من قبل."

وهذا المبدأ يعزز بشدة اتجاه تشومسكي إلى دراسة اللغة دراسة داخلية، بعدما لقيت إهمالا وتهميشا من لدن التيارات اللسانية السابقة، كما سارع إلى رد الاعتبار لهذه اللغة، بل وللذات الإنسانية عامة، فبعدما كان الإنسان موصوفا بالتقليد والمحاكاة واجترار ما يسمعه من التراكيب والصيغ اللغوية، أتى تشومسكي ليبطل هذا الزعم، ويؤكد أن اللغة من أهم الأنشطة التي ينفرد بها الإنسان الذي لا يكتفي بتلفظ الصيغ الكلامية التي التقطها سمعه فحسب، وإنما يستطيع أن يولد قدرا كبيرا من الجمل لم يسمعها قط، ويعبر عنها بصورة غير متناهية من التراكيب.

ب . مراحل تطور النحو التوليدي:

إن المتتبع لأعمال تشومسكي، يجد أن النحو التوليدي التحويلي عرف مجموعة من التطورات منذ سنة 1957م، وهو تاريخ ظهور أول كتاب له بعنوان "نماذج تركيبية"، ويلاحظ أيضا أن تشومسكي كان في كل مرة يصدر فيها كتابا، يضيف عناصر جديدة إلى هذا النحو انطلاقا من الانتقادات التي توجه له من طرف تلامذته وغيرهم. لذا، كانت هذه التطورات التي خضعت لها نظرية تشومكي اللسانية، بمثابة سد للثغرات التي من شأنها أن تقلل من فعالية هذا النحو في دراسة اللغة وتقنينها، ولا سيما أن المطمح الأكبر الذي كانت اللسانيات التوليدية تروم تحقيقه ولا زالت، ينصب بالأساس على صياغة نحو كلي قادر على استيعاب كل القواعد المشتركة بين كافة اللغات البشرية.

وتتلخص مراحل تطور النحو التوليدي في ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى :تتمثل في أول كتاب صدر عام 1957م، والموسوم ب"البنيات التركيبية"، بوصفه كتابا يؤرخ لأول ظهور للنظرية التوليدية التحويلية. وتعود جل الأفكار التي طرحها تشومسكي في هذا الكتاب إلى أستاذه زيليك هاريس، مع بعض التغييرات التي وسمت هذا النحو بميسم خاص.

ويعد هذا الكتاب إطارا نظريا أرسى فيه تشومسكي المبادئ العامة للنحو التوليدي، وكان شغله الشاغل في هذه المرحلة، هو التركيز على الأبعاد البنيوية للجمل دون إعارة المعنى أي اهتمام؛ بدعوى أنه يجب الفصل بين النحو والمعنى، "وأصبح الهدف عند تشومسكي هو اكتشاف البنى التركيبية"للجملة التي صارت المدار الرئيس لأبحاثه ودراساته اللسانية .لذلك صاغ تشومسكي نظريته وفقا لثلاثة قواعد:

القواعد التوليدية: "عبارة عن جهاز يحتوي على أبجدية رموز هي بمثابة معجمه"، وهذه الأبجدية تخول له إمكانية توليد وتأويل عدد من الجمل دون أن يكون قد سمعها من قبل، وفق سلسلة من الاختيارات؛ بحيث إن كل اختيار يفرض قيودا معينة على الاختيار الذي يليه، كأن نختار في بداية الجملة اسم الإشارة (هذا)، فالذي يعقبه ينبغي أن يكون اسما مفردا لا جمعا، فلا نقول: هذا الأولاد، و إنما نقول: هذا الولد..

وبما أن النحو التوليدي هو نحو صوري يقوم على مبدأ ترييض الوقائع الملموسة، وتحويلها إلى نماذج ورموز، فإننا نلاحظ أن تشومسكي جاء بما يسمى "قواعد إعادة الكتابة"، وهي قواعد تضطلع بوظيفة "إعادة كتابة الجملة بواسطة رمز يشير إلى عنصر معين من عناصر الكلام ."ومثال ذلك:

الجملة ⟵ مركب اسمي+ مركب فعلي.

المركب الإسمي ⟵ تع + اسم...

القواعد التحويلية :تمكننا هذه القواعد من "تحويل الجملة إلى جملة أخرى تتشابه معها في المعنى"، وذلك عن طريق جملة من التحويلات كالحذف والنقل والإضمار والتقديم...

القواعد الصوتية الصرفية :وهذه القواعد تهتم أساسا بتحويل "المورفيمات إلى سلسلة من الفونيمات، بمعنى إعادة كتابة العناصر كما تنطق."

ويمكن تلخيص بنية الجملة في أنموذج الخطاطة الآتية:

عنصر ابتدائي ---- القواعد التوليدية ---- القواعد التحويلية ---- القواعد الصوتية والصرفية ---- التمثل الصوتي

إذاً، فهذه هي البنية التي حددها تشومسكي للجملة في نموذجه الأول، ونجد أنه ركز على تحديد المكونات الأساس لأي جملة، مع مراعاة الجانب الداخلي للغة المتمثل في جانب القدرة، وبالضبط في القواعد التوليدية التي تقوم بدور التوليد، وتحديد العناصر الأولية للجملة.

المرحلة الثانية :حاول تشومسكي في هذا النموذج الذي نظر له في كتاب"جوانب من نظرية التركيب" عام1965م، استدراك بعض المكونات التي أهملها في النموذج الأول، نتيجة لمختلف الانتقادات التي تلقاها من طرف بعض تلامذته هم: كاتز وفودر وبوستر، وكان من نتائج هذه الانتقادات، أن أعاد النظر في الفصل الذي كان قد أقامه سابقا بين النحو والمعنى، فأضاف المكون

الدلالي، واحتفظ بالمكونات التي قعد لها في الأنموذج السابق، فصارت الجملة تخضع لثلاثة مكونات هي: المكون التركيبي والمكون الدلالي والمكون الصواتي.

ولعل من أهم ما طرحه تشومسكي في هذا الأنموذج–الأنموذج المعيار– إلى جانب الإقرار بضرورة خضوع الجملة للمكون الدلالي، مجموعة من الثنائيات، والتي تتحدد في:

. ثنائية البنية العميقة والبنية السطحية.

. ثنائية القدرة والإنجاز.

فللغة إذا جانبان أساسيان، لا يمكن أن نفهم اللغة إلا بهما هما:" الأداء اللغوي الفعلي ويمثل ما ينطقه الإنسان فعلا أي البنية السطحية للكلام، والكفاءة التحتية وتمثل البنية العميقة للكلام ." علاوة على ذلك، تحدث تشومسكي عن النحو الكلي؛ وهي فكرة استوحاها من نحاة بور رويال Port royal الذين تحدثوا أيضا عن النحو العام.

المرحلة الثالثة : حاول تشومسكي في هذه المرحلة أن يعيد للتحويلات وظيفتها الجزئية في تحديد دلالة الجملة، بعدما كان قد أقصاها كل من كاتز وفودر، فوسعت النظرية المعيار انطلاقا من هذا التعديل الطفيف على مستوى التحويلات. لذلك، "ربط تشومسكي التمثيل الدلالي بالبنية العميقة والبنية السطحية على السواء، وذلك من خلال:

. قاعدة تفسيرية دلالية أولى للبنية العميقة.

. قاعدة تفسيرية دلالية ثانية للبنية السطحية."

فهذه هي أهم التطورات التي مر بها النحو التوليدي التحويلي، انطلاقا من النموذج الأول وصولا إلى النموذج الثالث، ولا زالت نظرية تشومسكي اللغوية تخضع لمجموعة من التعديلات كان آخرها البرنامج الأدنوي، في انتظار ما ستأتي به مستقبلا في هذا المجال، وخاصة أن المطمح الأسمى للسانيات بشكل عام، لا زال يواجه عقبات عدة، تحتاج إلى مزيد من الاجتهاد والمعرفة الواسعة باللغة الإنسانية لتجاوزها.

خاتمة:

إذا كان زيليك هاريس؛ أستاذ تشومسكي، قد سار باللسانيات التوزيعية إلى أبعد مستويات تحليلها، فإن تشومسكي حاول أن يحذو حذو أستاذه، ويتبع خطاه في ترسيخ قواعد ثابتة قادرة على تفسير طبيعة اللغة، مع الانفراد ببعض المميزات التي تسم هذا النحو بميسم خاص؛ ولعل أبرزها يكمن أساسا في الجهاز المفاهيمي الذي جاء به، والذي سميت به هذه اللسانيات أيضا، ونقصد – هنا – مصطلحي التوليد والتحويل؛ باعتبارهما المدار الرئيس لهذا الاتجاه من اللسانيات. هذا وبالإضافة إلى مصطلحات أخرى؛ من قبيل القدرة و الإنجاز، والبنية السطحية والبنية العميقة، إلخ...

غير أنه ما ميز هذا النحو عن غيره من الأنحاء، أنه خضع لمجموعة من التطورات والتعديلات؛ كان يضيف فيها تشومسكي كل مرة عناصر جديدة، نتيجة الأصداء والانتقادات التي يتلقاها من تلامذته أو علماء اللغة بصفة عامة، فيستدرك من خلالها النقائص التي عرفها النموذج الذي قبله. وقد لاحظنا هذا في كتاب تشومكسي الثاني الصادر عام 1965م، عندما أضاف المكون الدلالي إلى نظريته بعدما كانت في الأنموذج الأول، عبارة عن نحو تركيبي صرف لا يعير لجانب الدلالة أي اهتمام.

وهكذا، نكون قد ألممنا ببعض جوانب هذا النحو، وبينا معالم برنامج تشومسكي العلمي، بما في ذلك؛ المبادئ العامة التي يقوم عليها منهجه في تقعيد اللغة وتحليلها، والتطورات الرئيسة التي خضع لها. فكان لكل هذه الأسباب، نتائج أسفرت عن بروز أنموذج جديد للتفكير في ماهية اللغة الإنسانية، التي تطرح إشكاليات عدة بكيفية مستمرة، تدعو اللغويين إلى إيجاد حلول لها عن طريق البحث، والوصف ومعاينة الوقائع بعيدا عن النزعة التعميمية والأحكام المعيارية.